

الأسئلة والأجوبة

في

الفتنة والسير



مكتبة الإمامية

المؤلفون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هدية . هدية . هدية  
المجمع العالمي لأهل السنة  
The Ahl-e-Sunnat World Assembly  
[www.ahli-el-bait.org](http://www.ahli-el-bait.org)



مكتبة ابن الجوزي العجينا

بنو عيسى السيد عيسى الدين الحسيني

الطبعة الأولى  
السنة ١٣٢٠ - ١٩٤٠  
توزيع المكتبة - العراق

# الإمامة والولاية

في

# القرآن الكريم

تأليف

نخبة من العلماء

تحقيق

المجمع العالمي لأهل البيت



اسم الكتاب: الإمامة والولاية في القرآن الكريم

المؤلف: نخبة من العلماء

الموضوع: كلام

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

الطبعة: الأولى

المطبعة: ليلى

الكمية: ٥٠٠٠

تاريخ النشر: ١٤٢٧ هـ

ISBN: 964-529-109-7

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

[www.ahl-ul-bayt.org](http://www.ahl-ul-bayt.org)

أَهْلَ الْبَيْتِ  
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

أَتَمَّ بِرِئَاسَةِ اللَّهِ  
لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الْجُبْنَ أَهْلَ الْبَيْتِ  
وَيُطَهِّرَ كُفْرًا تَطَهَّرْتُمْ

أَهْلَ الْبَيْتِ  
فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ  
كِتَابَ اللَّهِ وَعَنْتِي أَهْلَ بَيْتِي  
مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا

«الضَّحِيحُ وَاللَّيْثِيُّنَا»

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾

(المائدة: ٥٥)





## كلمة المجمع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

تحظى الإمامة بموقع متقدّم في التصوّر الإسلامي، وهو موقع يفرضه الواقع وتستلزمه طبيعة الحياة الاجتماعية للإنسان، فإنّ الإمامة - بما هي رئاسة عامة في شؤون الدين والدنيا - تعدّ أمراً أساسياً في مسيرة النبوات والشرائع السماوية، وفي الحياة اليومية للإنسان على حدّ سواء. ولعلّ أبرز مؤشر واقعي تاريخي يؤيد المكانة المتقدمة للإمامة؛ هو أنّها كانت الأساس والسبب الرئيس لاختلاف المسلمين طيلة التاريخ الإسلامي، بمعنى أنّ اختلافات المسلمين كانت ولا زالت تتمحور بصورة مباشرة أو غير مباشرة حول محور الإمامة، وحتى الاختلافات القائمة بشأن العدل الإلهي والقضاء والقدر وغير ذلك من المسائل التوحيدية الإلهية ليس بالإمكان حلّها والتغلب عليها، ما لم تُحلّ أولاً مسألة الإمامة والدور الممنوح لها في بيان حقائق الرسالة وشؤون النبوة.

وقد واجهت الإمامة في التاريخ الإسلامي أربعة مواقف متفاوتة، هي:

١- موقف النفي.

٢- موقف الإيمان السطحي.

٣- موقف الإيمان العميق.

٤- موقف الغلو.

التزم بالموقف الأول النجدات، وهم فرقة من الخوارج آمنوا بعدم لزوم الإمامة في حياة المسلمين، وعبر عن الموقف الرابع غلاة جهلة من الذين اعتقدوا بأن الدين يتلخص كله بمعرفة الإمام فإذا عُرف الإمام سقطت كل الواجبات، وفيهم من اعتقد بالوهية الإمام. أما الموقف الثاني والثالث فيمثلهما عامة المسلمين من جميع الفرق حيث قام الإجماع بينهم على لزوم الإمامة في البيئة الإسلامية، لكن المدرسة السنية أخذت بالموقف الثاني والمدرسة الإمامية أتبعَت الموقف الثالث.

آمنت المدرسة السنية بأن الإمامة وظيفة سياسية وإدارة دنيوية تنفيذية لبعض شؤون المجتمع الإسلامي، وأن ولي الأمر يتم التوصل إليه من خلال الشورى والبيعة والغلبة، وقد وصفنا هذا الموقف «بالإيمان السطحي» وذلك بالقياس إلى الموقف الثالث المتبني من قبل مدرسة أهل البيت والذي يعتبر الإمامة جزءاً من شؤون الرسالة السماوية بحيث لا تتم إلا به، ولذا فهي من أصول الدين التي لا يكمل الاعتقاد الديني إلا بها، ولا يقبل عمل من أعمال العباد بدونها «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، وهي لا تنبثق من خلال دور بشري كالشورى والبيعة، وإنما تتعين بالنص السماوي ويشترط فيها العصمة والأفضلية على سائر الخلق بالعلم والعمل، وللإمام دور في بيان حقائق الرسالة وغوامض النبوة، وله الولاية التكوينية، والشهادة على أعمال الخلق.

وَأَنَّ حَبَّةَ إِيمَانٍ وَبَغْضِهِ نِفَاقٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ مَدَّ فِي عَمْرِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكَيْ يَبْقَى هَذَا الْمَوْقِعَ الرَّسَالِيِّ مَحْفُوظًا لِلسَّمَاءِ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَلِكَيْ يَسْتَوْعِبَ خَطَّ الْإِمَامَةِ الْبَشَرِيَّةَ بِأَسْرَهَا.

وهذه الخصائص الرفيعة تعكس اهتماماً إضافياً وعناية خاصة بتوليها مدرسة أهل البيت عليهم السلام لمسألة الإمامة، وقد ورد في نصوص الأئمة عليهم السلام أنه: «لم يناد بشيء ما نوذي بالولاية»<sup>(١)</sup>.

وقد يعدّ البعض ذلك نوعاً من المبالغة والإفراط، ولكننا حينما نتمعن في الأمر ونتوغّل في أعماقه ندرك استحقيقه لكل ذلك، ذلك أن الدين الخاتم والرسالة العظمى والنبوة الأخيرة لا بد وأن يتمّ التحقّق عليها، والاحتياط الشديد بشأنها، حتى تبقى إلى آخر الزمان حقيقة ناصعة وحجة بالغة على البشرية وحتى آخر إنسان فيها، وعلى صعيد التطبيق وقيادة التجربة الإسلامية الأولى لا بد وأن تُعهد هذه المهمة إلى قيادة ممتازة ومن نوع خاص وذات مؤهلات استثنائية، حتى يتمّ إنجاز الدورة الحضارية الأولى للإسلام في ظلّ رعاية سماوية وتخطيط سماوي مباشر، لتأخذ الأمة المران الكافي والتدريب اللازم على قيادة التجربة، في الدورات اللاحقة غير السماوية، وحتى يتمّ التأكد من أنّ التجربة قد قامت على أسس معصومة، وأنّ رواسب الجاهلية وآثارها قد تمّ تصفيتهما من شعور الأمة ولا شعورها، فلا بد وأن تكون المرحلة التأسيسية للحضارة الإسلامية مرحلة خاضعة لإشراف سماوي، ومن دقائق التعبير ما ورد في الحديث

(١) أحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١ / ص ١٠ ط، بيروت - دار إحياء التراث العربي.

القدسِي: «ولاية علي بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»<sup>(١)</sup> فالولاية والإمامة حصن الرسالة، بل حصن التوحيد والسياس المنيع له.

وحيث إننا نتحدث عن حضارة ومراحل حضارية فمن الطبيعي أن لا تكون الإمامة محصورة بالعمر الطبيعي لإمام واحد أو إمامين، ولا بد وأن تمتد لفترة زمنية كافية، ومن هنا جاء التحديد باثني عشر إماماً تناوبوا على الإمامة فترة دامت قرابة القرنين ونصف من الزمان، وأن الإمام الثاني عشر قد مد الله في عمره إلى آخر الزمان مُغيباً عن الأنظار حتى يبقى موقع الإمامة محتفظاً بقدسيته السماوية، وحتى تستشعر البشرية في الدورات اللاحقة رعاية السماء لها في شؤون التجربة وقضايا التطبيق بما يمدّها بزخم روحي يعينها على الاستقامة أكثر فأكثر.

وفي ظلّ هذه الرؤية المعمّقة للإمامة ندرك مدى التهاون الذي وقعت فيه المدرسة السنية حينما أوكلت أمر الخلافة والإمامة إلى مجتمع كان بالأمر القريب مشبعاً بالشرك والعصبية القبلية، وتمادت في هذا التهاون أكثر حينما آمنت بنظرية ولاية العهد وصحة الإمامة لمن تغلب بالسيف وانعقاد البيعة ولو بثلاثة أفراد بل وحتى بفردي واحد، وكأنّ الشريعة ما نادت بشيء أضعف وأهون من الإمامة والخلافة، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل بعض المفكرين ينكرون وجود نظام سياسي في الإسلام، أمثال علي عبدالرازق في كتابه: «الإسلام وأصول الحكم».

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٢٩/ ٢٤٦، ط. بيروت - مؤسسة الوفاء.

وسنترك القارئ مع كتاب «الإمامة والولاية في القرآن الكريم» ليطالع بنفسه الأدلة والبراهين القرآنية على نظرية الإمامة طبقاً لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولكننا نتمسك بالشاهد التاريخي المؤيد لها، فالقضية التي كانت أساس الاختلاف في الأمة والسبب الأخير لكل ما حصل فيها من فتن وحروب ونزاعات داخلية ومعارك فكرية وانشطارات مذهبية لا يعقل أن تكون هيئته بالصورة التي تعكسها المدرسة السنية، وكيف يعقل حلها بولاية العهد وبيعة أفراد قلائل فينتفتح بذلك طريق الخلافة بأيسر ما يكون لشخص كيزيد بن معاوية؟ أليس من الصحيح أن يقال إن هذه هي المشكلة وليست الحل؟

### كتاب الإمامة والولاية في القرآن الكريم

ويمثل الكتاب - الذي بين أيدينا - محاولة موقفة قام بها عدد من الأعلام والباحثين وهم: السيد علي أكبر الموسوي اليزدي، محمد المحمدي الجيلاني، محمد اليزدي، حسين المظاهري، ومحمد تقي مصباح اليزدي - حفظهم الله تعالى - بقلم وتحرير الشيخ محمد علي التسخيري - دام ظلّه - لإثبات أسس وخصوصيات نظرية الإمامة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام طبقاً لآيات من القرآن الكريم، وأهميته تنبع أساساً من أهمية المنهج القرآني في إثبات العقيدة والبرهنة على خصوصياتها.

فإن هذا المنهج يأتي تكريماً لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup> واستنطاقاً لما فيه من الشواهد الدالة على حقانية مدرسة

أهل البيت عليهم السلام، فالكتاب الذي جاء تبياناً لكل شيء، لا بد وأن يكون قد انطوى على بيانات كافية وشفافية في مسألة مصيرية كمسألة الإمامة، وإذا تذكرنا تأكيد هذه المدرسة على مسألة الإمامة، حتى جعلتها من أصول الدين وآمنت بما مرز من الخصوصيات الرفيعة لها إتضح لنا أكثر مدى أهمية الدليل القرآني فيها، وحجم المسؤولية الفكرية في بيان هذا الدليل وتقريره وإيضاحه واشتقاق التفاصيل والجزئيات منه - وهذه وإن كانت مسؤولية كل المسلمين - باعتبار أن القرآن هو المصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلامية، وأن خفاء بعض الحقائق القرآنية قد يؤدي إلى إنكار بديهيات الشريعة كما أنكر على عبدالرازق من قبل وجود نظام سياسي في الإسلام زاعماً بأنه قرأ القرآن الكريم من الجلد إلى الجلد ووجده تبياناً لكل شيء ولم يجد فيه ما يدل على وجود نظام سياسي في الإسلام<sup>(١)</sup>. إلا أنها مسؤولية أكبر بالنسبة إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي آمنت بتلك الخصائص الرفيعة لمسألة الإمامة.

وللمنهج القرآني أهمية أخرى، هي الأهمية التقريبية بين المسلمين حيث يستطيع هذا المنهج إذا ما تواصل وتأكد بين المفكرين والكتاب المسلمين أن

(١) عبدالرازق، علي، الإسلام وأصول الحكم: ٤٢، وليت سأل نفسه عن هذا التناقض الذي يدعيه. فالكتاب الذي بين نحاسة المشرك وحرمه الغربية ووصف نفسه بأنه تبياناً لكل شيء كيف لا يكون تبياناً لقضية مصيرية كقضية الإمامة والخلافة؟ أليس هذا تهافتاً وتناقضاً؟ والكتاب الذي لم يفرط بشيء كيف فرط بالإمامة؟ وما معنى الآيات التي طالبت بإقامة حكم الله وأسندت الحكم للأنبياء تارة وللكتب السماوية تارة أخرى؟ أنظر الآيات التالية: سورة البقرة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٧ - ٢١٣ - ٢٥١، سورة يوسف: ١٠١، سورة النساء: ٥٤ - ١٠٥، سورة الجاثية: ١٦، سورة ص: ٢٠ - ٣٥، سورة المائدة: ٢٠، سورة آل عمران: ٧٩، سورة الأنعام: ٨٩، سورة

يلعب دوراً تقريبياً مهماً بينهم.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب وحاجة المثقف المسلم سنياً كان أم شيعياً الى مطالعته فقد كلّفنا سماحة الشيخ عبدالكريم آل نجف - حفظه الله تعالى - بأن يقوم بتيسير عبارته ونقلها قدر الإمكان من الصياغة التخصصية الكلاسيكية القديمة، الى الصياغة الحديثة واللغة العامة التي يأنس بها المستوى العام من المثقفين، وأن يقوم بتحقيق الكتاب وتوثيق أحداثه التاريخية واستخراج نصوصه وبيان مواضع الاستدلال من المصادر التي ذكرها مؤلفوا الكتاب دون أن يحدّوها من حيث الجزء والصفحة.

ونتقدّم بالشكر الجزيل لصاحب الفضيلة والتحقيق الشيخ غلام رضا الفياضي - حفظه الله تعالى - لمراجعة وقراءة هذه البحوث وابداء ملاحظاته القيّمة.

وأخيراً لا بدّ من كلمة شكر وتقدير لكلّ العاملين الذين ساهموا وبذلوا جهودهم في اخراج هذا الكتاب القيّم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

المعاونة الثقافية





## مقدمة المؤلفين

الحمد لله الذي تحيرت العقول في كنه معرفته، وانحسرت الأبصار عن التطلع الى غيب ملكوته، وكَلَّتْ عن بيان نعوته تعابير اللغات، وظَلَّتْ هنالك تصاريف الصفات، فسبحان الله عمَّا يصفون إلا عباد الله المخلصين، الذين استخلفهم وعَلَّمهم الأسماء كلَّها، فصيرهم شهداء على الناس أجمعين، صَلَّى اللهُ عليهم، ولا سَيِّمًا على شهيد الشهداء وشفيع الشفعاء محمد خاتم النبيين، وأهل بيته الذين طَهَّرهم من الدنس، وأذهب عنهم الرجس، وجعل مودتهم السبيل إليه تعالى، واللعن على أعدائهم ومنكري فضائلهم الى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه الرسالة مشكاة فيها مصباح الخلافة الإلهية والمصباح في زجاجة من الحجج القرآنية، فكأنها كوكب دريِّ يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية، وقد تحررنا فيها البحث عن الإمامة التي تمثل غاية الكمال الإنساني المنشود، والجوهر الحقيقي لخلافة الإنسان عن الله تعالى في أرضه، وهي الولاية الخاصة التي يمنحها الله سبحانه للمقربين من أوليائه، وتعدّ من المقامات السامية الرفيعة التي يصعب فهمها، إلا على من حباه الله بنور نافذ

وبصيرة كافية، ولعلها من أجلى مصاديق «الحديث الصعب المستصعب» الذي أشارت إليه الروايات المباركة<sup>(١)</sup>.

ويدور كتابنا هذا حول إثبات أصل الإمامة - دون تفاصيلها - من خلال آيات القرآن الكريم والسنة الشريفة، والغرض الذي نرمي إليه هو تبيين الحق ودفع شبهات البعض من حملة الفكر، الذين أنكروا وجود أدلة قرآنية تثبت الإمامة والولاية، مرددين في ذلك أقوالاً وآراءً واهية لفئات ضالة، وتابعوها في ذلك رغم الدلائل الساطعة، ولم يكتفوا بترديد ذلك، بل راحوا يطعنون على فقهاء الأمة ومحدثيها الذين دونوا المدونات والقوا الموسوعات في إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام، ولكن يبقى الحق واضحاً بيتاً رغم ما يحاوله هؤلاء من إحداث البلبلة والتشويش الفكري، فإنه ليس بإمكان أحد إخفاء الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ أَحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾<sup>(٢)</sup>.

ولأجل أن ندخل هذا الموضوع من أوثق جهاته وأنقى مصادره ومن الموضوع الذي جرى على أساسه التشكيك والانكار - كما يدعي هؤلاء - لذا فقد اعتمدنا في طرحنا لأبعاد وخصائص نظرية الإمامة والولاية في الإسلام على

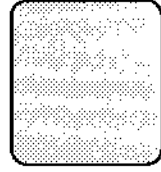
(١) أفرد ثقة الإسلام الكليني في كتابه الكافي باباً خاصاً بعنوان «فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب» اشتمل على عدة روايات منها الرواية الواردة عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن حديث آل محمّد صعب مستصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان» ج ١: ص ٤٦٤ باب ١٠٢ ح ١، وورد أيضاً في البحار للعلامة المجلسي ج ٢: ص ١٨٩ باب ٢٦. وتكرر معناه ومضمونه في البحار كثيراً ج ٣٧: ص ٢٣٤، ج ٢٥: ص ٣٦٦ - ص ٣٨٣، ج ٤٢: ص ١٨٩، ج ٦٧: ص ١٠٣، ج ٩٦: ص ١٩١.

(٢) المؤمنون: ٧١.

تفسير دقيق ومركز لأربع عشرة آية من آيات القرآن الكريم التي تناولت وعالجت بشكل أو بآخر هذا الموضوع، مؤكدين ذلك بالأحاديث الشريفة. وحيث تؤكد مدرسة أهل البيت عليهم السلام على خاصيتي العلم والعصمة في الإمامة، لذا فقد رأينا ضرورة أن نختم الكتاب يبحث موجز عن علم وعصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا  
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١).





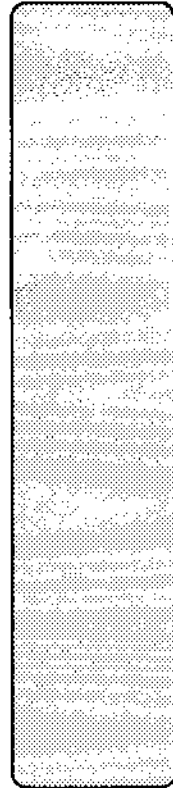
## الفصل الأول

### الخلافة أساس الكمال الإنساني وغايته

#### آية الخلافة

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

(البقرة: ٣٠ - ٣٣)





تتحدث هذه الآيات القرآنية عن سر من أسرار الخليفة، وهدف النشأة الإنسانية بنحو نستطيع أن نستخلص من مجموع ما فيها من الإشارات والمعاني بعض جوانب المفهوم القرآني عن الخلافة، فمن هو الخليفة؟ وماهي الخلافة؟ وما هو ملاكها والأساس الذي تقوم عليه؟

فرغم أن هذه الآيات تتحدث عن الخلافة بمفهومها العام الذي يعني نيابة الإنسان عن الله في التصرف في الأرض، إلا أن التدقيق في إشاراتها ومداليلها يوصلنا الى الخلافة بمفهومها الخاص بما ينطوي عليه من معنى الحكم والسلطة السياسية، ذلك أن الخليفة هو من يقوم مقام الغير، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بصيغتين:

١ - صيغة المفرد، كما في المورد الذي نحن فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً﴾<sup>(١)</sup>.

ووردت مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾<sup>(٢)</sup> ولم تتكرر مرة ثالثة.

٢ - صيغة الجمع، وهي خلائف أو خلفاء، وقد تكررت في القرآن الكريم سبع مرات، هي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) الأنعام: ١٦٥.



تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنْتُمْ خَلَائِفَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنْتُمْ خَلَائِفَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجِيبُ الْمُنَظَّرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾<sup>(٦)</sup>.

ويلاحظ أن الاستعمال القرآني فرّق بين الصيغتين، حيث استعمل الصيغة الأولى في موارد الإشارة إلى خلافة الإنسان عن الله سبحانه، واستعمل الصيغة الثانية في موارد الإشارة إلى خلافة المؤمنين واتباع النبوات لمن سواهم من المعاندين والمشركين بنحو خاص. أو خلافة قوم لقوم آخرين بمعنى عام توارث الأرض والسيطرة بينهم. فهناك خلافتان خلافة الإنسان عن الله سبحانه ونستطيع أن نطلق عليها تسمية الخلافة الإلهية، وخلافة الإنسان عن الإنسان ونستطيع أن نطلق عليها تسمية الخلافة البشرية. والخلافة الإلهية هي التي تعيننا في بحثنا هذا، وهي المقصودة في آية الخلافة، وذلك:

١- إن الآية أطلقت لفظ «خليفة» من غير إضافة أو إشارة إلى المخوف، عنه، وهذا أسلوب في التعبير يفهم منه أن الخلافة المقصودة خلافة عن الله سبحانه، ذلك أن منشأ الخلافة إذا كشف عن المخوف عنه بأن قال: «جعلت

(١) فاطر: ٣٩.

(٢) يونس: ١٤.

(٣) يونس: ٧٣.

(٤) الأعراف: ٦٩.

(٥) الأعراف: ٧٤.

(٦) النمل: ٦٢.

فلاناً خليفة لفلان» أو «خليفة عني» فهو ذلك، وإذا لم يكشف عنه في متن «الجعل» كما لو قال رئيس الدولة «إني جاعل في الدولة خليفة» فهم من قوله هذا أن المخلوف عنه هو رئيس الدولة نفسه وأن الخليفة المجمعول هو خليفة عن الرئيس «الجاعل» وإن لم يصرح بذلك في كلامه. وآية الخلافة هي من هذا النوع ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فيفهم منها الخلافة الإلهية.

٢- إن استفهام الملائكة وما جرى من الحوار بينهم وبين الله سبحانه يبين بوضوح أنهم بصدد الاستفهام عن خلافة الإنسان عن الله سبحانه، وكذلك إجابة الله لهم وما جرى من سؤاله وامتحانه إياهم، تؤكد أنه سبحانه بصدد الخلافة الإلهية.

٣- ومما يؤكد كون الخلافة المتصود هنا إلهية، أن الله عزف الإنسان للملائكة على أنه خليفة قبل أن يخلقه، والمفروض في آية الخلافة أنها تتحدث عن الإنسان الأول، الذي سيدشن الأرض قبل أي مخلوق آخر له شأنية الخلافة والسيادة على ما سواه، فلا تعقل الخلافة البشرية إذ لا بشر في الأرض قبل آدم، حتى يكون خليفة عنهم ولم يسكنها مخلوق قبله بينه وبين آدم نوع من السنخية، بحيث يكون أبوالبشر خليفة عنه، فينحصر معنى الآية في الخلافة الإلهية.

كل ذلك في الخلافة، أما آية: ﴿يا داؤدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ فإنَّ السبب الأول جارٍ فيها، إذ لم تبيّن الآية من هو المخلوف عنه، وقد تبيّن أن هذا الأسلوب من التعبير يفهم منه الخلافة الإلهية، كما أن عبارة: ﴿فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ تنسجم مع الخلافة الإلهية دون الخلافة البشرية والقيام مقام الآخرين.

### الخلافة الإلهية، ملائكتها ودائرتها

إن منطق الخلافة يقتضي من الخليفة أن يكون امتداداً طبيعياً لمن يستخلفه. وكذا النائب ينبغي أن يكون امتداداً تجسدياً في الفكر والسلوك للمنوب عنه. ويلاحظ في آية الخلافة أنها لم تقيد الخلافة بل جاءت مطلقة. فوظائف الخلافة وأعمالها غير محدودة، وكذلك دائرة الاستخلاف والمخلوقات المشمولة له. وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى فوض لآدم ﷺ خلافة مضافة من هاتين الجهتين. وهذا الإطلاق يؤكد ضرورة كون الخليفة ممثلاً للمستخلف - وهو الله سبحانه - في الفكر والسلوك. وذاتياً فيه بأعلى درجة ممكنة. لأن الخلافة المطلقة تعني الثقة المطلقة من قبل المستخلف والالتزام المطلق من قبل الخليفة. ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الدرجة العالية من الالتزام أن يكون الخليفة عانماً بخصائص المستخلف وصفاته، ومحيطاً بالشؤون التي استخلف فيها. أي أن يكون عالماً بالله سبحانه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى من جهة. وبالأرض التي استخلفه عيها والمخلوقات الكائنة عليها من جهة أخرى كما يجب أن تكون له القدرة الضرورية للتصرف فيه. وبدون هذا العلم لا يستطيع أن يجسد إرادة الله وصفاته، وبالتالي يعجز عن أن يكون امتداداً له وممثلاً عنه. كما لا يستطيع أن يدير المخلوقات ويدير الشؤون التي استخلف فيها.

ومن هنا احتاج الخليفة المعين والمختار من قبل الخالق سبحانه إلى العلم والتعلم بقدر كاف ومن نوع مناسب. فصرحت الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ليتحقق من خلال ذلك ملاك الخلافة وأساسها، وقد جاء ذلك التعليم بالقدر

الكافي ﴿ الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا ﴾ أي أن التعليم كان على قدر الخلافة. فكما أن الخلافة مطلقة فكذلك جاء التعليم عاماً شاملاً للجهات التي يحتاج الى الاطلاع عليها في الخالق والمخلوق. ولم يكن ذلك التعليم بالألفاظ ومدالينها الذهنية. وإنما كان بالحقائق ومصاديقها الخارجية العينية. وكان لا بد أن يكون ذلك العلم متناسباً في نوعيته مع مقام الخلافة الإلهية المطلقة. أي أن يكون في أرقى درجة ممكنة ومن أعلى نوع ممكن. وقد كان كذلك. فإن آدم تنقّى العلم من الله مباشرة، ولا عيب فوق العلم الذي يفيضه الله سبحانه بصورة مباشرة لمن جعله خليفة له. وربما يؤيد ذلك ما ورد في الآية من نسبة العلم الى آدم ﷺ ونسبة الإنبياء الى الملائكة: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فما أفيض على آدم هو العلم وما أفيض على الملائكة هو الإنبياء.

ومن كل ذلك يتحصل أن الخلافة الإلهية تتقوم بالعلم. ولكن ليس كل علم. وإنما بالعلم الشهودي لا الكسبي الحصولي. علم يتلقاه الخليفة من الله سبحانه مباشرة وبغير واسطة. وهذا النوع من العلم يمثل أساس الخلافة الإلهية وملاكها. وهذا هو الذي جعل الملائكة يعترفون بقصورهم عن احتلال مقام الخلافة، وقد كانوا قبل ذلك يتصورون استحقاتهم له من خلال ما يقدمونه من تسبيح وتقديس، ولكن حينما علم الله آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة بادروا الى الاعتراف بالعجز قائلين: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

وبعد هذا نتساءل عن حقيقة الأسماء التي تعلمها آدم. فالمعروف أن الاسم هو ما يعرف به الشيء، ولكن ما المراد به في آية الخلافة؟

هنا توجد أربعة احتمالات هي:

١- أن يكون المراد بها هو أسماء الله سبحانه أي الألفاظ.

- ٢- أن يكون المراد بها هو المفاهيم الذهنية لتلك الأسماء، فما حصل هو إلقاء تلك المفاهيم في ذهن آدم عليه السلام .
- ٣- إن المراد بها الأعيان الخارجية الحاكية عن الله سبحانه وتعالى .
- ٤- إن المراد بها أسماء المخلوقات .
- والاحتمال الأول لا يتم. ذلك أن اللغات والألفاظ لم تكن قد وضعت آنذاك.

والاحتمال الثاني لا يتم. لأن المفاهيم الذهنية غير قابلة للنقل والإنباء. والاحتمال الرابع لا يتم. لأن ما ورد على الاحتمال الأول يرد عليه أيضاً. فيتعين الاحتمال الثالث. فيكون المراد من تلك الأسماء هي الأسماء العينية الحسنى كما يساعد عليه تعبير الإنباء في قوله تعالى: ﴿انْبئوني بأسماء هؤلاء﴾ وقوله تعالى: ﴿أَتبأهم بأسمائهم﴾ .

ومن المحتمل أن تكون هذه الأسماء أسماء الله تعالى من جهة وأسماء ما سواه من جهة أخرى. فإن «هؤلاء» الذين أظيفت الأسماء إليهم في الآية يتصفون تارة بأنهم مظاهر لصفاتة الحسنی ونعوته العلیاء، وأخرى بكونهم موجودات تختزن في داخلها كمالات المخلوقات على وجه أتم وأعلى. وعلى هذا الوجه فلا تعارض بين الروايات التي فسرت الأسماء بكونها الجبال والأودية وأمثال ذلك، وبين الروايات الأخرى التي فسرتها بأنوار المعصومين وأرواحهم عليهم السلام. وقد ورد في بعض الروايات وصف المعصومين بأنهم الأسماء الحسنی<sup>(١)</sup>.

(١) الكشي، محمد بن يعقوب "الكافي" ج ١ / ص ١٩٧ ح ٤٠٤. عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله

ولا ريب في أنّ الخلافة المجعولة في الآية ليست مختصة بشخص آدم ﷺ، بل هي خلافة نوعية؛ وذلك لأنّ الملائكة قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ وهو قول ينسجم مع وجود كثرة في الأفراد وواقع مستمر ومتواصل بنحو يفهم منه أنّ الخلافة لا تختصّ بآدم وإنما تشمل غيره، ويلاحظ في جواب الله سبحانه على استفهام الملائكة أنّه لم ينفِ حصول القتل والفساد في ذرية آدم، وإنما أجاب بقوله سبحانه: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهو قول يفهم منه أنّ الخلافة لا تشمل الأفراد الذين سير تكبون القتل والفساد، وأنها لا بد وأن تكون خاصة بمن يستبح الله ويقدّسه، وعليه تكون الخلافة مجعولة لآدم كنوع لا كشخص، وآدم النوعي هو المعصوم الذي تلقى العلم الشهودي ونال الخلافة بنصّ الهي، وعليه فالخلفاء من بعده - أو بتعبير آخر - أنّ الأفراد الآخرين لخطّ الخلافة الإلهية لا بد وأن يكونوا من هذا النوع يحملوا هذه الخصائص، وأنّ في النوع الإنساني من سيحمل صلاحية الوصول الى هذا المقام الرفيع.

ومما سبق كلّهُ يتضح لنا أنّ مقام الخلافة الإلهية يمثل ذروة الكمال الإنساني ومنتهى الرفعة الإنسانية المنشودة.

وهناك روايات عديدة تؤيد المعطيات التي استفدناها من آية الخلافة:

منها: ما رواه الصدوق بسندين عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَّمَ آدَمَ ﷺ أَسْمَاءَ حَجَجِ اللَّهِ كُلِّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ - وَهُمْ أَرْوَاحٌ - عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: ﴿ أَتُبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بِأَنْكُمْ أَحَقُّ بِالْخِلاَفَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَسْبِيحِكُمْ وَتَقْدِسِكُمْ مِنْ آدَمَ ﷺ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ

— عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ قال عليه السلام: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا».

وتعالى: ﴿أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله - تعالى ذكره - فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيبتهم عن أبصارهم واستعبدتهم بولايتهم ومحبتهم وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي تفسير العياشي عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام سأله عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علمه؟ قال: «الأرضين والجيال والشعاب والأودية» ثم نظر الى بساط تحته فقال: «وهذا البساط مما علمه»<sup>(٢)</sup>.

وفي تفسير العياشي أيضاً عن داود بن سرحان العطار قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدينا ثم جاءوا بالطست والندست سنانه، فقلت: جعلت فداك. قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الطست والندست سنانه منه؟ قال: «الفجاج والأودية» وأهوى بيده: كذا وكذا<sup>(٣)</sup>.

وفيه أيضاً روايات أخرى تقرب مما ذكر، وكذا في تفسير القمي<sup>(٤)</sup>.

(١) الصدوق، معاني بن علي، كمال الدين، ج ١ / ص ١٤.

(٢) العياشي، محمد، بن مسعود، تفسير العياشي، ج ١ / ص ٥١، أنظر كذلك: البحراني هاشم الحسيني تفسير أيرهان، ج ١ / ص ٧٥ / ح ٩، وكذلك المحسني، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١ / ص ١٤٦ - ١٤٧.

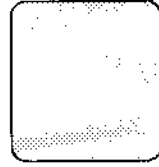
(٣) تفسير العياشي، ج ١ / ص ٥١، أنظر كذلك البحراني / هاشم الحسيني / تفسير أيرهان، ج ١ / ص ٧٥ / ح ١١ كذلك المحسني محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١ / ص ١٤٧.

وفي هامش البحار ستظهر كون الصحيح في العبارة: «ثم جاءوا بالطست والندست شويه»، في الموضوعين، وعلي كل فالكلمة فارسية ومعناها الاناء المعد لغسل اليد.

والفجاج جمع فحج، وهو الطريق الواضح بين الجبلين، وفي بعض النسخ والمصادر وردت كلمة «العجاج»، وهو الغبار.

الندست من أشياخ ما ينسب الإنسان ويكفيه تبرأده في جوانحه.

(٤) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ج ١ / ص ٤٥.



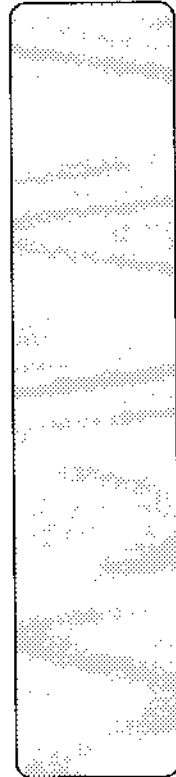
## الفصل الثاني

### مقومات الإمامة وخصائصها

#### آية المباهلة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ  
إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا  
يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)







انطوت هذه الآية الكريمة على بيان جوانب مهمة من نظرية الإمامة. وقبل التعرّض لهذه الجوانب يحسن بنا بيان معاني بعض المفردات الأساسية التي وردت في الآية.

فقد ورد فيها الابتلاء: ﴿وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ... الخ﴾ وهو والبلاء بمعنى واحد، يقال: بلوته وابتليته بكذا، أي أوقعته في أمرٍ ليظهر ما يخفى من صفاته، وغالباً ما تكون الغاية من الابتلاء هي اكتشاف الجهات الكامنة من حقيقة الشيء. ويقرب من معناه الاختيار والامتحان والفتنة، إلا أنّ الغاية المذكورة لا تصدق على الله سبحانه، فما يقوم به من الابتلاءات لعباده ليس لغرض اكتشاف حقيقة العبد، لأنّ الله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وإتّما لغرض إبراز حال العبد وإظهار ما كمن في نفسه وكشف الستار عنها. وهذه هي غاية أصل النشأة الإنسانية، حيث قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تَرَجِعُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

والكلمات جمع كلمة، وهي ما يُتكلّم به، وتطلق على اللفظ المفرد، وعلى

(١) الملك: ٢.

(٢) الكهف: ٧.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

الجملة، وعلى ما هو أكثر منها أيضاً، فيقال: «كلمة رئيس الجمهورية» ويراد بها الخطاب الذي يليه. وكما تطلق على النطق الحاكي للمعنى كذلك تطلق على المعنى المحكي باللفظ أيضاً، وقد استعملت في القرآن الكريم في كليهما، فمن الاستعمال في الحاكي قوله تعالى: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، ومن الاستعمال في المحكي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾<sup>(٢)</sup>، وأطلقها القرآن الكريم على بعض الموجودات الخارجية بغض النظر عن كونها مدلولة لألفاظ معينة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَقْبَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾<sup>(٣)</sup>. ويوجد في توجيه ذلك الإطلاق والاستعمال احتمالان:

أولهما: إن كل موجود ممكن بما أنه مخلوق له تعالى ليس إلا نفس كلمة كن الإبداعية. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٤)</sup>.

ثانيهما: إن الممكنات والمخلوقات مظاهر وجود الله سبحانه، فهي مُعَرِّبة وحاكية عنه كما يحكي ويعرب اللفظ عن المعنى، وبالتالي فهي بمثابة الكلمة من هذه الجهة.

وورد في الآية أيضاً لفظ الإمام وهو من يؤتم به، يقال: أم القوم إذا تقدّمهم،

(١) الكهف: ٥.

(٢) إبراهيم: ٢٤.

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) آل عمران: ٥٩.

وكأنه مأخوذ من الإمام - بالفتح - بمعنى القُدَام، فالأصل في معناه ما يكون أمام الشيء وقُدَامه، ومن هنا استعمله القرآن الكريم في معنى الطريق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِيَامِمِ مِينَ﴾<sup>(١)</sup>. كما أطلقه على الكتاب التكويني كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>، والكتاب التشريعي السماوي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾<sup>(٣)</sup>.

وأيضاً أطلقه على قائد القوم في الهدى أو الضلال، ومثال الهدى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾<sup>(٤)</sup>، ومثال الضلال قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ﴾<sup>(٥)</sup>.

### الإمامة الإبراهيمية

وبعد بيان معنى المفردات الأساسية التي وردت في الآية، نأتي لاستطلاع حقيقة الإمامة الإبراهيمية من جهات ثلاث:

#### ١- دور الإبتلاء في الإمامة:

لقد بينت الآية أن للإمامة دوراً في الإمامة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والمراد بالكلمات وإن احتمل أن يكون إما هو

(١) الحجر: ٧٩.

(٢) يس: ١٢.

(٣) الأحقاف: ١٢.

(٤) الأنبياء: ٧٣.

(٥) القصص: ٤١.

هو الأوامر الإلهية الموجهة لإبراهيم عليه السلام والحاوية لتكاليف هامة، أو متعلقات تلك التكاليف. وقد أطلق عليها القرآن تسمية «الكلمات» باعتبار كونها محكية لكلامه تعالى أو أنها أمور وجدت بكلمة «كن» الإيجادية. إلا أن الأظهر هو أن المراد بها هو البلايا والمحن التي تعرض لها إبراهيم عليه السلام في حياته كالإلقاء في النار والإضطرار للهجرة والأمر بذبح ابنه وما أخذ عليه من العهود في الصبر على ذلك، يقول تعالى في قصة ذبح إسماعيل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١)</sup>.

فالمراد بإتمام الكلمات في قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ هو الإتيان على الوجه التام. حيث إن الكلمات بمثابة حوادث ناقصة قام إبراهيم عليه السلام بإتمامها عندما طبّقها وعمل بمقتضاها. فيكون ضمير «أتمهن» راجعاً إلى إبراهيم عليه السلام، وإذا جعلنا الضمير راجعاً إلى «ربه» فيكون معنى الإتمام هو إكمال الاختبار والامتحان، أو منح التوفيق لإبراهيم للعمل بمقتضى الإرادة الإلهية.

ولكن على ما استظهرناه من تفسير الكلمات بالبلايا والمحن التي عاشها إبراهيم يكون معنى الإتمام هو الصبر على ذلك والعمل بمقتضى الإرادة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

ويتحصّل ممّا مضى أن الابتلاء هو عملية تأهيل لمقام الإمامة السامي. وأن العمل بما يلزم في البلية كان شرطاً ضرورياً للفوز بهذه الكرامة العظمى.

(١) الصفات: ١٠٦.

(٢) السجدة: ٢٤.

## ۲- مكانة الإمامة بالقياس إلى النبوة:

وبعد أن اتضح لنا دور الابتلاء في الإمامة وفوز إبراهيم عليه السلام بهذا المقام الرفيع وأنه إنما نال إبراهيم عليه السلام تلك الخطورة الكبرى بعد أن نجح في امتحانه الرائع، الذي أثبت أهليته عليه السلام لها وأنه كان الصبر على كلفة الامتحان مقدّمة للصبر على تحمّل أعباء الإمامة. نحاول أن نستوحي من الآية ما يبيّن لنا حقيقة الإمامة ومكانتها بالقياس إلى النبوة، وإذا أردنا التحقيق في المسألة وجدنا الاحتمالات المتصورة في المسألة هي خمسة احتمالات:

- ۱- أن تكون الإمامة هي نفس النبوة.
- ۲- أن تكون مقاماً تشريعياً دون مقام النبوة.
- ۳- أن تكون مقاماً تشريعياً فوق مقام النبوة.
- ۴- أن تكون مقاماً تكوينياً من مراتب القرب إلى الله تعالى كالصلاح والإخلاص وما أشبههما.
- ۵- أن تكون مقاماً تكوينياً فوق مقام النبوة. هو القدرة على تكميل النفوس وإيصالها إلى غاياتها، وهو في الحقيقة نوع من الوساطة في الفيض والعتاء الإلهي.

ونأتي الآن لدراسة وتمحيص هذه الاحتمالات. واختيار الاحتمال الذي تؤيده الأدلة أكثر من غيره. أو تعينه من بينها دون غيره.

أما الاحتمال الأول: فلا يساعد عليه الاعتبار. ذلك أننا عرفنا أن إبراهيم عليه السلام مُنح الإمامة بعدما حصل له من الاختبار والامتحان والابتلاء. الذي تُبين عبارة «فأتمهن» مدى شدّته وصعوبته، ويؤيد ذلك من أنه المقرّر في علم النحو أن

اسم الفاعل لا يعمل في المفعول إلا إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، واسم الفاعل في الآية هو «جاعل» ومفعوله «إماماً» والزمن الذي تتحدث عنه الآية هو ما بعد إتمام الكلمات والابتلاءات، فلا بد وأن يكون زمن الجعل بعد ذلك، وليس من المعقول أن يكون جعل الإمامة قبل الابتلاء، إذ يصبح الابتلاء لاغياً لا معنى له حينئذٍ، هذا كله من جهة.

ومن جهة أخرى نجد أن الامتحان والاختبار جاء في زمن نبوة إبراهيم، أي أنه كان نبياً ثم جرت عليه تلك الامتحانات، فلما اتمهنت منح الإمامة. والدليل على ذلك هو الفرق الزمني بين الآيات التي تحدثت عن نبوة إبراهيم والآيات التي تحدثت عن إمامته، ففي زمن نبوته كان فتىً يافعاً قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يذُكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾<sup>(١)</sup> وكان له أب، قال تعالى: ﴿واذكُر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيّاً... يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك...﴾<sup>(٢)</sup> بينما أشارت آيات إمامته إلى كبر سنه وما كان لديه من الأبناء، فحينما منح الإمامة تساءل عن استمرارها في ذريته بقوله: ﴿ومن ذريتي﴾ ممّا يدل على وجود أبناء له آنذاك، وإذا جمعنا بين هذا القول والقول الآخر: ﴿الحمد لله الذي وهبني على الكبر إسماعيل وإسحق﴾<sup>(٣)</sup> تبين أنه منح الإمامة في أواخر عمره، بل إن آية أخرى أشارت إلى أن البشارة بالأبناء جاءت في زمن متأخر من حياته، فحينما دخلت عليه الملائكة وهي في طريقها إلى قوم لوط - حينما جاءت لإهلاكهم - وبشّرتة

(١) الأنبياء: ٦٠.

(٢) مريم: ٤١ - ٤٣.

(٣) إبراهيم: ٣٩.

بحصول الأبناء له تعجب من هذه البشارة قائلاً: ﴿أبشرتوني على أن متني الكبر فيهم تُبشرون﴾<sup>(١)</sup>، وكانت هذه البشارة بعد رسالته وإيمان لوط به، إذ قال تعالى: ﴿فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ رب هب لي من الصالحين ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾<sup>(٣)</sup>. وتؤكد هذا المعنى روايات كثيرة تدل على ذلك بصراحة ووضوح.

من كل ذلك يتحصل أن الإمامة حصلت لإبراهيم عليه السلام بعد إتمام الامتحان من جهة، وأن الإمتحان حصل في زمن النبوة من جهة أخرى. ونتيجة الجمع بين الجهتين أن الإمامة منحت له بعد النبوة، وهذا يعني أن النبوة غير الإمامة وليست نفسها.

والاحتمال الثاني: لا يتم أيضاً، لأن منح الإمامة بعد النبوة يكشف عن كون الإمامة مقاماً أرفع من النبوة، خاصة مع وضوح أنها أعطيت له بعد تعرضه لأنواع الاختبارات والامتحانات والابتلاءات. فلو لم تكن مقاماً أرفع من النبوة لما كان لهذه الاختبارات حكمة ومعنى.

والاحتمال الثالث: لا يصح، لأن الآية صرحت بوجود غرض اجتماعي من الإمامة، وذلك قوله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ فيفهم من أن الإمامة ليست شأنًا روحياً عبادياً فردياً خاصاً، وإنما هو شأن اجتماعي ومقام مدني «جاعلك للناس» فينحصر الأمر في الاحتمالين.

الرابع: وهو أن تكون الإمامة مقاماً تشريعياً فوق النبوة.

(١) الحجر: ٥٤.

(٢) العنكبوت: ٢٦.

(٣) الصافات: ٩٩ - ١٠١.



والخامس: وهو أن تكون الإمامة مقاماً تكوينياً فوق النبوة، ومعنى المقام التشريعي المذكور وجوب اتباع النبي في جميع أقواله وأفعاله، ذلك أن النبوة والرسالة لا تتطلبان في ذاتهما الاقتداء بالنبي والرسول في جميع الحركات والأعمال، وغاية ما تفرضانه هي الطاعة والاستماع لما يبلغ للناس من دعوة ورسالة، اللهم إلا أن يأتي دليل آخر غير الدليل الدال على النبوة أو الرسالة فيدل على وجوب اتباع العملي، مثل قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾<sup>(٢)</sup>، فالدليل النبوة يشهد وجوب إمتثال بلاغات النبوة وأوامرها، ولا يتعدى إلى وجوب متابعة النبي في كل أفعاله وأقواله، وهذا الوجوب الثاني يحتاج إلى أدلة خاصة ومقام خاص وهو مقام الإمامة، وحينئذ فالآيات الدالة على لزوم طاعة النبي ﷺ تكون دالة في الوقت نفسه على حيازته على مقام الإمامة.

والإمامة التكوينية تعني أن الإمام واسطة لإيصال الهداية لمن هو أهل لها، فهناك هداية تشريعية موجهة للمؤمن والكافر معاً، وهناك هداية تكوينية يختص بها المؤمن ويكون الإمام واسطة في إيصالها إليه.

وقد تبين أخيراً أن أمر الإمامة يدور بين أن تكون مقاماً تشريعياً فقط، أو مقاماً تكوينياً بعد الفراغ من كونها مقاماً فوق النبوة<sup>(٣)</sup>.

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) إن كون الإمامة مقاماً فوق النبوة لا يلزم منه أفضلية الأئمة عليهم السلام على الرسول محمد ﷺ، لثبوت أن الرسول ﷺ سيد الخلق وأشرف الأنبياء والرسل، وما حاز النبي مقاماً إلا وحاز الرسول ﷺ ما هو أعلى منه،

ومما يؤيد الاحتمال الأخير أن في سورة الأنبياء جعل الهداية التكوينية من آثار الإمامة، حيث قال عزّ من قائل: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾<sup>(١)</sup> فإنّ الهداية في هذه الآية ليست من قبيل إراءة الطريق وإيضاح الهدف لإتمام الحجّة كما هو شأن النبي المنذر، وذلك لأنّ الأمر هو قوله تعالى كن الذي لا يتخلف عنه وجود المأمور، فالهداية بالأمر هداية موصلة الى المطلوب لا تتخلف عنه، فهي أمر فوق النبوة ومقتضياتها التشريعية، ومن هنا نفهم أنّ من خصائص الإمامة الهداية التكوينية، التي تعني إيصال النفوس المستعدّة الى الهداية التي تنشدها، وأنّ الأئمة وسائط تؤثر أثرها في النفوس بأمر الله سبحانه، كما هو عمل الملائكة الذي يكون بأمره تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وبتعبير آخر: أنّ مقام الإمامة مقام ظاهره التشريع وباطنه التكوين، بمعنى أنّ ظاهر الآية الشريفة: ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ هو إثبات مقام تشريعي للإمام يستلزم أن يكون قوله وفعله وتقريره حجة مطلقاً على الخلق، وباطنها إثبات مقام تكويني للإمام، ومن خواص هذا المقام التكويني جريان الهداية الإلهية على يديه، ولا يوجد أيّ تنافٍ بين المعنيين التشريعي والتكويني، لأنّهما مترتبان طوليان، أي أحدهما يقصد ويراد بعد الآخر، كما هو الشأن في استفادة المعاني من الآيات وبطونها المتعددة ذات الوجوه المتنوعة التي لا يؤدي الأخذ

→ فإذا كان إبراهيم عليه السلام قد أعطي الإمامة فإنّ نبينا صلى الله عليه وآله قد أعطي مثلها وزيادة، فلا يمكن أن يكون الأئمة برتبة أفضل من النبي صلى الله عليه وآله. «معدّ الكتاب».

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) الأنبياء: ٢٧.

بأحدها إلى بطلان الوجوه الأخرى.

وهكذا يقودنا البحث إلى اختيار الاحتمال الخامس، وخلاصته: أن الإمامة مقام فوق النبوة وأنه مقام تشريعي وتكويني معاً، ويكفي لإثبات صفة التشريعية إطلاق عنوان ووصف الإمامة على شخص، فإن معنى هذا العنوان هو حجية أقوال وأفعال وتقريرات ذلك الشخص في جميع الأمور التشريعية مما يتعلّق بالإنسان ومسيرته الكمالية، وإلا أصبح عنوان الإمام بالنسبة له فاقداً لمعناه، بخلاف عنوان النبوة الذي لا يستلزم في ذاته هذا المعنى، وإنما قد يضاف إليه بأدلة أخرى كما مرّ، أما الصفة التكوينية فقد مرّ معناها وإثباتها بآية: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ .

### ٣- شرط العصمة في الإمامة

وهو المستفاد من ذيل الآية: ﴿قَالَ وَمَنْ ذَرَيْتِي قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذا المقطع من الآية يعدّ من الموارد القرآنية التي بيّنت مدى إهتمام إبراهيم عليه السلام بأبنائه وعنايته الشديدة بهم، فتارةً نجده يستوهب الله سبحانه ذرية صالحه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup> وأخرى يدعو أن تكون ذريته أمة مسلمة لله، وذلك في دعاء مشترك له مع ولده إسماعيل عند بناء البيت العتيق: ﴿رَبَّنَا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾<sup>(٢)</sup> وثالثة يطلب منه سبحانه أن يجتبه

(١) الصافات: ١٠٠.

(٢) البقرة: ١٢٨.

وبينه عبادة الأصنام: ﴿واجني وبني أن نعبد الأصنام﴾<sup>(١)</sup>.

وفي آية الإمامة التي نحن بصددنا نجد هذه السيرة، فما أن تلقى البشارة بجعله إماماً حتى بادر إلى التساءل عن إمكانية إعطائها لذريته، أو بتعبير آخر تساءل عن مدى استحقاقهم له، وهل أنهم سيبلغون هذه الرتبة أم لا؟ فجاءه الجواب: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ بصيغة قانون سماوي صارم يدل على أن الإمامة عهد إلهي، الغرض منه إقرار الحق والعدالة في الأرض، ولذا فإنه لا ينال الظالمين وليس بإمكانهم الوصول إليه، إذ كيف يُطلب من الظالم إقرار الحق والعدالة؟ ومن الطبيعي أن يبلغ الاحتياط والتحفظ لحرمة الإمامة ووظيفتها الإلهية الأخلاقية درجة عالية بحيث يمتد مفهوم الظالم المذكور في الآية إلى كل من ارتكب ظلماً ولو بحق نفسه فقط ولم يتعد على حدود الآخرين وحقوقهم.

والملاحظ في جواب الله سبحانه على سؤال إبراهيم ﷺ أنه جاء إماماً رداً على بعض ما سأل، أو تعييناً لما أهمل، أو تنبيهاً له على ما أغفل. ولعل الاحتمال الثاني هو الأقرب للاعتبار وهو أن إبراهيم ﷺ أهمل تخصيص السؤال بالصالحين من ذريته، فجاء الجواب بتعيين الإمامة فيهم دون غيرهم، ويمكن إرجاع هذه الاحتمالات بعضها إلى بعض. وحينئذ لا تبقى ثمرة لهذا التشقيق.

وتبعاً للأئمة ﷺ تمسك الإمامية منذ العهد الأول بهذه الآية لإثبات عصمة الإمام كشرط لازم لإمامته، لصراحتها في عدم أهلية الظالم لهذا المقام السامي. ولا ريب في أن من أظهر مصاديق الظلم الشرك بالله وعبادة غيره، حيث قال

تعالى: ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> وأن إطلاق ﴿الظالمين﴾ شامل لكل ظلم سواء كان على الغير أو على النفس. وكل معصية صغيرة أو كبيرة ظلم لا يصلح مرتكبه لهذا المقام الشامخ. وقد ذكر أعلام الإمامية وجوهاً وتقريبات عديدة لتوضيح دلالة الآية على لزوم أن يكون الإمام معصوماً قبل أن يناله عهد الإمامة. وفيما يلي بعض هذه الوجوه:

١- إن سؤال إبراهيم ﷺ الإمامة لبعض ذريته لابد وأن يقبل واحداً من أربعة احتمالات: فالمقصود بالإمامة إما أن يكون ظالماً طيلة حياته. أو في الفصل الأخير منها. أو أنه تلبس بالظلم فترة من حياته ثم تاب، أو أنه رجل منزّه عن الظلم طيلة حياته. والاحتمال الأول لا يتوقع صدوره من شيخ الأنبياء إبراهيم ﷺ بحيث يطلب الإمامة لفرد ظالم طيلة حياته، وكذا الاحتمال الثاني. لما فيه من انحراف الأمم والأجيال وضلالهم ونقض الفرض، فيبقى الأمر مردداً بين الاحتمالين الثالث والرابع. فجاءت آية الإمامة لتنفي الاحتمال الثالث. فيبقى الأمر محصوراً في الاحتمال الرابع. وهو خلق الإمام من الظلم طيلة حياته. وهو معنى العصمة.

٢- إن قانون: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ جاء جواباً على سؤال إبراهيم الإمامة لبعض ذريته ليؤكد أن دعاء إبراهيم لن يستجاب في الظالمين منهم. ومن الواضح أن القانون المذكور يتحدث عن المستقبل، وأن إطلاق وصف الظالم إنما هو بملاحظة حال تلبسه وقيامه بالظلم لا خصوص حال صدور هذا

(١) لقمان: ١٣

الخطاب لإبراهيم عليه السلام، وأن الإمامة عهد ينزل من الله تعالى فيجري فيمن كان قابلاً له. ويحق من كان لاثقاً به، من ارتكب الظلم في بعض حالات حياته، فقد إنطبق عليه عنوان الظالم. ومن إنطبق عليه عنوان الظالم فقد فقد بذلك صلاحية نيل عهده تعالى له، وهو مقام الإمامة.

٣- إن بالإمكان تقسيم الأوصاف التي قسمين: قسم لا يكفي حصولها في وقت ما لبقاء صدقها على صاحبها بل يجب استمرارها ونواصلها كوصف العالم والعدل، وقسم آخر يكفي في صدقها على صاحبها حصولها فيه وصدورها منه ولو في آن من الحياة كوصف الوالد والقاتل.

وعندما نلاحظ خصوصيات مقام الإمامة وجو الآية نجد أن وصف الظالم يلحق بالقسم الثاني دون الأول، وذلك لاستقرار سيرة العقلاء على التحفظ الشديد في مجال منح المناصب السياسية والاجتماعية الهامة، وعدم الاكتفاء بملاحظة الحالة الحاضرة للأشخاص المرشحين لها. بل التأكيد أيضاً على ملاحظة السوابق السلوكية والفكرية لهم، فمن ثبتت له سابقة سيوكية أو فكرية سيئة منع من الوصول إلى المناصب الحساسة، حتى لو كانت سيرته الحاضرة مقبولة. وربما لوحظت الحالة السابقة في أغراض أقل. من ذلك كالزواج. كل ذلك بسبب الاعتقاد بأن الماضي يؤثر في الحاضر بطريق ما. شعوري، أو لا شعوري. كما هي الفكرة السائدة الآن في علم النفس الحديث.

وحينئذ فمن الطبيعي أن يبلغ الاحتياط والتحفظ الدرجة القصوى في موضوع كالإمامة، الذي هو من أخطر المناصب على الإطلاق، وهو الذي يحدّد سعادة الأمة أو شقاءها، استقامتها أو انحرافها، والدرجة القصوى هي العصمة.

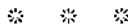
٤- إن الآية كشفت عن ستة إلهية في مجال إعطاء العهود والمناصب الإلهية. وهي تؤكد أن هذه العهود لن تُعطى إلا لمن له رادع داخلي عن الظلم والطغيان، وليست الإمامة سلعة تُعطى ثم تُستردّ عند ظهور عدم صلاحية حامها وصدور الظلم والطغيان عنه. وإنما تُعطى لمن هو مأمون عن ذلك بنحو حتمي. مثلها في ذلك مثل النبوة، ولا يحصل الأمن والاطمئنان الأكيد إلا إذا وجدت ملكة نفسية عاصمة وقوة قلبية فائقة. وهي ما تحتاج الى بنية خاصة وشرائط تكوينية مساعدة ومدكات تصونه عن الخطأ والانحراف، وليس ذلك إلا العصمة.

وبعد بيان هذه الوجوه الأربعة. نلاحظ أن نسبة العهد إلى الله سبحانه تؤكد على أنه أمر لا دخل للناس فيه. وأنه تعيين إلهي لا انتخاب ولا اختيار للأمة فيه. وهذه الوجوه الأربعة إنما تقام لإثبات شرط العصمة في الإمامة عن طريق القرآن لمن لا يعتقد بإمامة أهل البيت عليهم السلام وحجّية كلامهم، أما المدّعون لإمامتهم والمعتقد بحجّية كلامهم فهو في غنى عن هذه الوجوه، لورود روايات كثيرة عنهم عليهم السلام، تفسر الآية بما قلناه وتبطل إمامة كل من عبد صنماً، وأنه لا يمكن أن يكون السفية الذي رغب عن ملّة إبراهيم إماماً لثمنتين، فقد ورد في مصادر الإمامية مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبياً، وأن الله اتخذ نبياً قبل أن يتّخذه رسولاً، وأن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وأن الله اتخذ خليلاً، وأن الله اتخذ خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: إنني جاعلك للناس إماماً، قال فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ﴿ومن ذريتي قال لا ينال عهدي

الظالمين ﴿ قال: لا يكون السفيه إمام التقي ﴾<sup>(١)</sup> .

وورد مثله عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً<sup>(٢)</sup> .

بل ورد عن طرق السنة أيضاً ما يؤكد المعنى الذي ذكرناه، فعن أبي الحسن الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبدالله بن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة إبراهيم» قننا: يا رسول الله! وكيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: «أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم، إني جاعلك للناس إماماً، فاستخف إبراهيم الفرح، قال: ومن ذريتي أئمة مثلي؟ فأوحى الله عز وجل إليه، أن يا إبراهيم إني لأعطيك عهداً لا أفي لك به قال: يا رب ما العهد الذي لا تفي لي به؟ قال: لأعطيك لظالم من ذريتك عهداً، قال إبراهيم عندها: ﴿ واجنبي وبنّي أن نعبد الأصنام ربّ إنهن اضللن كثيراً من الناس ﴾ . قال النبي ﷺ: «فانتهت الدعوة إليّ وإلى عليّ لم يسجد أحد منا لصنم قطّ فاتخذني الله نبياً واتخذ عليّاً وصياً»<sup>(٣)</sup> .



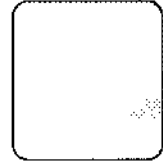
(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢٣٠ - ٢٣١ / ج ٢ - ٤، أنظر كذلك المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول: ج ٢ / ص ٢٨٥ - ٢٨٦، وكذلك البحراني، السيد هاشم الحسيني، غاية المعراج: ج ١١ / ص ٢٧٢، فلا عن الشيخ الحويزي عبدعلي بن جمعة في نور الثقلين: ج ١ / ص ١٠٢ / ج ٣٤٢، وعن الشيخ المفيد في أماليه ولكنني لم أشر عليه في النسخة المطبوعة من أمالي الشيخ المفيد...

(٢) الحويزي، عبدعلي بن جمعة، نور الثقلين: ج ١ / ص ١٠٢ / ج ٣٤٣

(٣) ابن المغازلي الشافعي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي طالب: ص ٢٧٦ - ٢٧٧







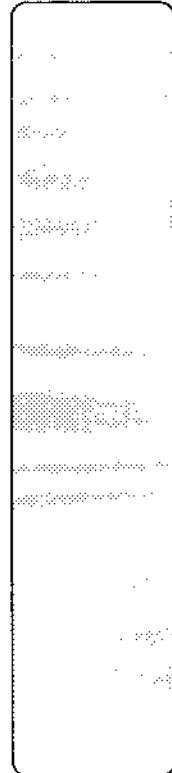
## الفصل الثالث

### أعلام الولاية وكواكب الإمامة

#### آية أولي الأمر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ  
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

(النساء: ٥٩)





## ولاية الأمر أو الدولة الإسلامية

تساهم هذه الآية الكريمة في تشييد جانب من نظرية الإمامة ومدرسة الولاية في القرآن الكريم، وأول ما يتبادر منها في هذا المجال ما تنطوي عليه من الإشارة الى وجود منصبين يتمتع بهما الرسول ﷺ ، وينبغي التمييز بينهما وهما:

١ - منصب النبوة وإبلاغ الشريعة والرسالة الى البشرية، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾<sup>(١)</sup>.

٢ - منصب الإمامة والقيادة وولاية الأمر، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾<sup>(٢)</sup>.

ويركز القرآن الكريم على ضرورة إطاعة الرسول ﷺ في كلا المجالين، ويؤكد على كونها طاعة لله سبحانه، وقد استعمل القرآن أربعة أساليب في التعبير عن ذلك هي:

١ - أسلوب الجمع بين طاعة الله والرسول، وهو الشافع في القرآن الكريم مثل: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ١٠٥.

(٣) آل عمران: ١٣٢.

الله لا يحب الكافرين ﴿١﴾، ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ (٢) . ﴿وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون﴾ (٣).

٢- أسلوب عطف طاعة الرسول على طاعة الله، مثل ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ (٤). ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ (٥)، ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

٣- أسلوب الاختصار على طاعة الرسول، مثل: ﴿أفيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ (٦).

٤- أسلوب إرجاع طاعة الرسول الى طاعة الله، مثل: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٧) .

وقد بينا في الفصل السابق أنّ آيات النبوة والرسالة لا تدل بنفسها على لزوم طاعة الرسول، وأقصى ما تدل عليه هو لزوم طاعة النبوة والرسالة الإلهية، ومن هنا جاءت آيات طاعة الرسول لتسدّ هذا الفراغ وتعالج هذا الجانب، ومن أجل ترسيخ ذلك وتأكيد تنوعت أساليب القرآن في بيانه، فتارةً تأمر بطاعة الرسول فقط كما في الأسلوب الثالث، وأخرى تُرجع طاعة الرسول الى طاعة

(١) آل عمران: ٣٢.

(٢) الأنفال: ١.

(٣) المجادلة: ١٣.

(٤) النور: ٥٤.

(٥) محمد: ٣٣.

(٦) النور: ٥٦.

(٧) النساء: ٨٠.

الله سبحانه كما في الأسلوب الرابع. وثالثة تجمع بين الطاعتين في بيان واحد كما في الأسلوب الأول. ورابعة تعطف طاعة الرسول على طاعة الله كما في الأسلوب الثاني.

ولدى التأمل في هذه الآيات نجد أنها تدل على ما قسناه أولاً من وجود منصيين للرسول ﷺ: أحدهما: النبوة وإبلاغ الرسالة والأحكام، وثانيهما: الإمامة وقيادة المجتمع والدولة. ذلك أن الأمر بطاعة الرسول يدل على أنه مكلف بوظائف اجتماعية وسياسية، بحيث يتطلب أدائها وإنجازها طاعة المسلمين له وخضوعهم لرأيه، وليس ذلك إلا منصب الإمامة والقيادة والولاية، ولو لم يكن له ذلك لكان الأمر بطاعته خالياً من المعنى. لأن أدلة النبوة والرسالة تكفلت بلزوم طاعة الرسول فيما يبلغه من أحكام وشرائع. فما معنى ورود أدلة جديدة تطالب بطاعة الرسول وتجعلها صنواً لطاعة الله؟

لقد اعتقد بعض المفسرين أنها تأكيد للأدلة السابقة. ولكن الصحيح أنها جاءت لتفصل بين المنصيين المذكورين للنبي، وتؤكد على ضرورة طاعة النبي ﷺ في منصب الولاية والإمامة. وأن طاعته في هذا المنصب كطاعته في منصبه الآخر - النبوة والرسالة - تعود إلى طاعة الله سبحانه وتعالى. وهذا المعنى يتجلى أكثر في أسلوب عطف الأمر بطاعة الرسول على الأمر بطاعة الله بتكرار كلمة «أطيعوا» وهو الأسلوب الذي تكرر في القرآن خمس مرات<sup>(١)</sup>، خاصة في آية أولى الأمر التي نحن بصددتها حيث خصت الله سبحانه بطاعة، وجمعت بين النبي ﷺ وأولي الأمر بطاعة أخرى، مما يدل على أن الآيات التي تأمر

(١) وهي: النساء: ٥٩، المائدة: ٩٢، التور: ٥٤، التباين: ٨٢، محمد: ٢٣.

بطاعة الرسول ناظرة إلى منصب إمامته وولايته.

وبالنتيجة تكون الآيات الأمرة بطاعة الله ناظرة إلى منصب النبوة والرسالة. باعتبار أن طاعة الله إنما تتجسد في اتباع شريعته، التي جاء بها الرسول ﷺ. ويتأكد هذا المعنى أكثر إذا لاحظنا أن اتباع الشريعة واطاعة الأحكام الإلهية إنما هي في الحقيقة طاعة لله سبحانه. ولا يمكن اعتبارها طاعة للنبي. إلا بنحو من المجاز والمسامحة، وذلك لأن الشريعة المتبعة والأحكام المطبقة إنما هي أوامر الله ونواهيه.

وبالتالي فإن طاعتها إنما هي طاعة الله سبحانه، ولا تصح نسبة الطاعة إلى النبي ﷺ إلا عندما تكون هناك أوامر ونواهٍ صدرت عن النبي ﷺ. بلسان الحكومة والولاية لا بلسان تبليغ الأحكام والشرائع الإلهية. وهذا هو مغزى تكرار كلمة «أطيعوا» في الآيه، وليس معنى عطف «أولي الأمر» على الرسول إلا الإشارة إلى منصب مشترك بين الرسول وأولي الأمر، وهو منصب الحكومة والولاية.

وبعد هذا كله نعود إلى الآية مرة أخرى لنستفيد منها شيئاً جديداً. حيث نلاحظ أن الآية تدرجت من طاعة الله سبحانه إلى طاعة الرسول ﷺ ومن طاعة الرسول إلى طاعة أولي الأمر، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نحن نعلم أن طاعة العبد لله إنما هي طاعة مطلقة لأوامر ونواه معصومة، واتباع لشرعية لا يتطرق إليها الباطل بنحو من الأنحاء. وإذا لاحظنا الآيات الأمرة بطاعة الرسول خاصة الآيات من الأسلوب الأول:

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ والآيات من الأسلوب التي تُرجع طاعة الرسول إلى طاعة الله سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ أمكننا التوصل إلى عصمة الرسول ﷺ. وهذا مقتضى العينية الموجودة بين الطاعيتين. وبتعبير آخر أن ترشح طاعة الرسول عن طاعة الله سبحانه. يكشف عن وصول فيض العصمة الإلهية إلى السدة النبوية.

ثم إذا لاحظنا آيات الأسلوب الثاني التي تعطف طاعة النبي ﷺ على طاعة الله، خاصة آية أولي الأمر التي نحن بصددتها والتي جمعت بين أولي الأمر وبين الرسول بطاعة واحدة وبنحو يفهم منه أن الآية بصدد النظر إلى عنصر مشترك ومنصب واحد بين الرسول وأولي الأمر. وهو منصب الولاية والحكومة. إذا نظرنا إلى هذه الآية أمكننا التوصل إلى عصمة أولي الأمر أيضاً؛ ذلك أننا إذا كنا قد توصلنا إلى عصمة الرسول من خلال اتحاد طاعته مع طاعة الله سبحانه، فلاشك أن اتحاد طاعة الرسول مع طاعة أولي الأمر يكشف عن عصمة أولي الأمر أيضاً، وهكذا يترشح فيض العصمة من الله إلى النبي. ومن النبي إلى أولي الأمر، مما يستتبع ترشح لزوم الطاعة عبر هذه السلسلة أيضاً. فتجب طاعة أولي الأمر لوجوب طاعة الرسول. وتجب طاعة الرسول لوجوب طاعة الله سبحانه.

ومما يؤيد استفادة عصمة أولي الأمر من الآية أمور ثلاثة هي:

١- إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر من جهة ونهى عن اتباع خطوات الشيطان من جهة أخرى. فلو لم يكن ولي الأمر معصوماً كان اتباعه في موارد خطاه اتباعاً للشيطان، ولا يمكن الأمر بشيء قد نهى عنه لأنه يلزم منه الضدان: الوجوب والحرمة.



٢ - إن الأمر بطاعة أولي الأمر في الآية جاء مطلقاً كالأمر بطاعة الله والرسول، وهذا الإطلاق لا ينسجم إلا مع القول بعصمة أولي الأمر، لأن غير المعصوم قد يأمر بمعصية فتحرم طاعته فيها، وهذا يتنافى مع إطلاق الأمر بالطاعة.

وقد يقال: بأن الآية مقيدة بقيد منفصل مستفاد من دليل آخر، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَنْتُمْ لَا تُحِبُّونَ اللَّهَ فَلا يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَلا يُغْنِي عَنْكُمْ كُفْرُكُمْ شَيْئاً وَلا تَتَّبِعُوا الْهَيْهَاتَ الْمَعْتَبِينَ﴾ (١) وقول الرسول ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٢) وبذلك يرتفع إشكال التضاد.

ولكن هذا القول لا يتم، لأن القرآن جعل طاعة الرسول ﷺ بمنزلة طاعة الله، وحينئذٍ فكما أن طاعة الله لا تقبل التقييد والتخصيص، كذلك طاعة الرسول لا تقبل التقييد والتخصيص، ولذا لا نستطيع القول بأن قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ مقيد بقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وذلك للتناهي بين القولين، وبالتالي عدم صلاحية الكلام الثاني لتقييد الكلام الأول، فإن الكلام الأول يدل على صحة أوامر الرسول ﷺ ومطابقتها لأوامر الله سبحانه بينما يدل الكلام الثاني - إذا اعتبر قيداً للآية - على إمكان صدور المخالفة من الرسول ﷺ.

وما قيل في الرسول يقال أيضاً في أولي الأمر، فكما أن إطلاق الأمر بطاعة الرسول لا يقبل التقييد كذلك إطلاق الأمر بطاعة أولي الأمر لا يقبل التقييد.

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) المجلسي، محمد، باقر، بحار الأنوار، ج ١٠ / ص ٢٢٧ / باب ١٤.

لأن الآية: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ جعلت أولي الأمر والرسول بمنزلة واحدة، وحينئذ يبقى الأمر بطاعة أولي على إطلاقه وممتنعاً عن التقييد، مما يدل على عصمة أولي الأمر المقصودين بالطاعة.

٣- إن الآية في سياق تعظيم الرسول وأولى الأمر وإعطاء درجة واحدة من اللزوم والنفوذ لأوامرهما، وهذا السياق بحد ذاته ينفي إمكانية تخصيص أو تقييد طاعة أولي الأمر في ما عدا المعاصي، لأن تعظيم المعاصي قبيح، ولأن التقييد والتخصيص، إذا كان ممكناً سرى إلى أوامر النبي ﷺ. ولم يقف عند حدود أولي الأمر لظهور الآية في وحدة درجة النفوذ واللزوم في أوامرهما، وحيث لا يمكن تقييد طاعة النبي ﷺ فلا يمكن تقييد طاعة أولي الأمر أيضاً، ولو كان التقييد ممكناً لظهر ذلك في الآية نفسها، لأن القرآن الكريم التزم بالتقييد في ما هو أدنى من شأن الإمامة وأقل حاجة إلى التقييد. كما في قوله تعالى عند التعرض لبرّ الوالدين: ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها﴾ (١).

وقد اعترف الفخر الرازي في تفسيره بدلالة الآية على عصمة الرسول وأولي الأمر، فقال في المسألة الثالثة في ذيل الآية: أعلم أن قوله: ﴿وأولى الأمر منكم﴾ يدل عندنا على أن اجماع الأمة حجة، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً

(١) العنكبوت: ٨.

بفعل ذلك الخطأ. والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي الى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وإته محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكور في الآية لا بد وأن يكون معصوماً<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر:

«... فكان حمل الآية على الاجماع أولى، لأنه أدخل الرسول وأولي الأمر في لفظ واحد. وهو قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾. فكان حمل ﴿أولي الأمر﴾ الذي هو مقرون بالرسول على المعصوم أولى من حملة على الفاجر الفاسق...»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الرأي اعتمده النيشابوري في تفسيره<sup>(٣)</sup> وكذلك الشيخ محمد عبده على ما حكاه مقرر بحثه في المنار بقوله: «فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة - إلى أن قال - : طاعتهم واجبة ويصح أن يقال: هم معصومون في هذا الاجماع»<sup>(٤)</sup> وإن أضاف إليه المقرر ما يوهم خلافه. فراجع.

ويتلخص من كل ما مر أن الآية تدل على عصمة أولي الأمر المقصودين

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٥ / ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥١.

(٣) النيشابوري، الحسن بن محمد القمي، غرائب القرآن: ج ٥ / ص ٦٥.

(٤) رضا محمد رشيد، تفسير المنار: ج ٥ / ص ١٨١.

بالطاعة، ولكن قد يرد اشكال على هذا الاستدلال وهو: أن تعبير ﴿منكم﴾ الوارد في الآية ربما جاء للتنبية على أن أولي الأمر المقصودين بالطاعة هم أفراد من هذه الأمة ليست لهم أية مزية على سائر الأفراد كالعصمة وغيرها. ولكن هذا الاشكال غير تام، لأن تعبير ﴿منكم﴾ في الآية نظير تعبير ﴿منهم﴾ في قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾<sup>(١)</sup> فكما أن كون الرسول فرداً من هذه الأمة لا ينفي وجود صفة زائدة فيه. فكذلك كون أولي الأمر أفراداً من هذه الأمة لا ينفي وجود مزية فيهم. ولعل المقصود من هذه الكلمة هو العكس تماماً، وهو إثبات المزية لهم، فكأن الآية تريد إشعار الأمة بأن كون هؤلاء أفراداً منكم لا يعني مساواتكم لهم. بل هناك مزايا فيهم توجب طاعتكم لهم.

### صلاحيات أولي الأمر

ماهي صلاحيات أولي الأمر؟ وماهي دائرة نفوذهم في المجتمع الإسلامي؟

يمكن استفادة الجواب من خلال ذيل الآية: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ والجواب الذي يمكن استفادته منها هو أحد الرأيين التاليين:

١- إن وظائف ولي الأمر تنحصر في تشخيص الموضوعات ومعالجتها.

٢- إن وظائف ولي الأمر تشمل الأحكام والموضوعات معاً.

ودليل الرأي الأول: أن كلمة «شيء» الواردة في الآية كموضوع للتنازع

تشير الى صلاحيات ووظائف الرسول وأولي الأمر، وهي وإن كانت بظاهرها تعم كل ما تنازعت فيه الأمة وكان محلاً للاختلاف فيما بينها، سواء كان من الأحكام أو القضايا، والمنازعات الحقوقية التي تحتاج الى الترافع والتحاكم، أو الموضوعات الخارجية التطبيقية والمسائل الإجرامية والتنفيذية، إلا أن الآية لما ذكرت الردّ الى الله والرسول اقتضت عليهما ولم تذكر معهما أولي الأمر، مما يفهم منه أن الشيء المقصود هو الأحكام الشرعية، التي يمتلك الرسول فيها حيثية التبليغ. الأمر الذي يوضح بالتالي أن الأحكام الشرعية ووظيفة خاصة بالرسول، وأن ما عدا ذلك كالقضاء والولاية العامة على شؤون الدولة والمجتمع، هي وظائف مشتركة بين النبي ﷺ وأولي الأمر.

ودليل الرأي الثاني: أن إطلاق: ﴿وأطيعوا الرسول وأولي الأمر﴾ يفهم منه وحدة دائرة التفوذ بين النبي وأولي الأمر، وبالتالي فكل ما كان وظيفة للرسول هو وظيفة لأولي الأمر إلا ما خرج بالدليل، وتخصيص ردّ الشيء المتنازع فيه بالرسول لا يدل على اختصاص الرسول بالأحكام الشرعية دون أولي الأمر، لأن السياق لا يفهم منه التخصيص، وإنما هو من قبيل التمثيل لمن يرجع إليه في الأحكام والموضوعات، وليس من باب الحصر، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾<sup>(١)</sup> فإن الآية هنا اقتضت على الرسول وأولي الأمر ولم تذكر لفظ الجلالة، وبالجمع بين الآيتين نفهم أنّهما بصدد بيان من له شأنية الحلّ والإجابة عند المراجعة، فتذكران لفظ الجلالة والرسول تارة،

والرسول وأولي الأمر تارة أخرى. وهي في ذلك بصدد التمثيل لا التحصر. اللهم إلا أن يقال كرد على هذا الوجه: إن آية الأمن والخوف اقتضت على ذكر الرسول وأولي الأمر. لأن موضوعها وهو الأمن والخوف منا يرجع فيه إلى ولاية الأمور. وذكّر الرسول هنا بما له من الولاية والحاكمية وليس بخصوصية النبوة والرسالة. وقد أهملت ذكر لفظ الجلالة لأن الله لا يرجع إليه في مثل هذه الأمور العادية الإجرائية، وهذا التأمل كما يضعف الرأي الثاني يؤكد الرأي الأول في المسألة أيضاً.

### من هم أولو الأمر؟

وأخيراً نصل إلى عقدة أساسية من البحث، وهي من هم أولو الأمر الذين تتحدّث عنهم الآية؟

في البدء لابد من التوضيح بأن الأمر كلمة قد يراد بها الشأن، وقد يراد بها المعنى المقابل للنهي. وأولو الأمر جماعة من الأمة لهم موقع متقدّم فيها، بحيث يمتلكون أمرها ويسترون شؤونها. وهذا المعنى واضح، ولكن من هم هؤلاء الولاة للأمور الذين تتحدّث عنهم الآية؟ وهل كانوا موجودين على عهد الرسول أم أن الآية تتحدّث على نحو القضية الحقيقية<sup>(١)</sup>، فلا يشترط في صدق الآية وجود أولي الأمر في زمن صدورها. وإتما هي أصدرت حكماً على المسلمين في موضوع موجود فعلاً وهو وجوب طاعة الرسول ﷺ وأصدرت حكماً آخر في موضوع مقدر الوجود وهو وجوب طاعة أولي الأمر؟

(١) القضية الحقيقية اصطلاح منطقي يراد به إصدار حكم بشأن موضوع ما، سواء كانت مصاديقه موجودة فعلاً أو كانت معدومة لكنها لوحظت مفدرة الوجود، مثل كونه مسكر حرام، وبقاؤها القضية الخارجية النافذة إلى مصاديق موجودة فعلاً، مثل كل طالب في المدرسة مجتهد معذ الكتاب...

والشيء الذي يمكن التوصل إليه هو أن استعمال اسم الجمع «أولي الأمر» لا ينزم منه كون الآية ناظرة إلى جماعة معينة موجودة في كل زمان ومكان، فربما كان المقصود به آحاداً من الأمة يتولون شؤونها واحداً بعد الآخر، كما هو الشأن في القضايا الحقيقية التي قد تصاغ بلسان الجمع ويراد بها الأفراد الموجودة فعلاً، والتي ستوجد ولو بكيفية يكون وجودها واحداً بعد الآخر، ولهذا الاستعمال نظائر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾<sup>(٣)</sup> ففي مثل هذه الآيات لا يفهم أنها ناظرة حتماً إلى جماعة كانوا مكذبين أو مسرفين أو كبراء، ولا مانع من أن تكون ناظرة إلى آحاد يتقلدون الأمر واحداً بعد واحد. نعم استعمال الجمع في فرد واحد شخصي - على نحو القضية الشخصية خلاف الظاهر - ولكن ليس الأمر هاهنا كذلك.

وعلى هذا الأساس ندرك المقارقة التي وقع فيها الفخر الرازي في تفسيره، عندما اعتقد أن المراد بأولي الأمر لآبد وأن يكون جماعة وهيئة مكونة من عدة أفراد، وبنى على ذلك حجج الإجماع الصادر عن أهل الحل والعقد من الأمة، معتبراً عنه بإجماع الأمة تارة وإجماع أهل الحل والعقد أخرى. كما آمن بعصمة أولي الأمر وهذه نقطة مشتركة بيننا وبينه إلا أنه لا يقصد بأولي الأمر ما نقصده نحن، وعنده أن أولي الأمر هم أهل الحل والعقد من علماء الأمة.

ويرد على هذا الرأي: أن القول بعصمة هؤلاء لآبد وأن يُفسر بأحد

(١) القيم: ٨

(٢) الشعراء: ١٥١

(٣) الأحزاب: ٦٧

الاحتمالات التالية:

- ١- عصمة كل فرد منهم.
  - ٢- عصمة الجماعة بما هي جماعة.
  - ٣- إن المقصود بالعصمة ملازمة الصواب للجماعة عادة. نظير ملازمة صحة الخبر لبلوغ المخبرين عنه حد التواتر.
- والاحتمال الأول واضح البطلان. إذ يلزم منه أن تكون العصمة قد تحققت للأفراد إما قبل دخولهم في الجماعة أو بعد ذلك. فإذا كانت عصمتهم قبل الجماعة فما هو الدليل على ذلك؟ وإذا كانت بعد الجماعة فهذا يعني القول بالاحتمال الثاني. ولذا لا يوجد قائل بعصمة أفراد أهل الحل والعقد.
- والاحتمال الثاني باطل أيضاً، لأن الجماعة بما هي جماعة ليس لها وجود خارجي زائد عن وجود الأفراد، فما معنى نسبة العصمة لأمر اعتباري ذهني لا وجود خارجي له.
- والاحتمال الثالث لا يؤدي إلى العصمة. وإنما يؤدي إلى ضالة الخطأ في الآراء الصادرة عن أهل الحل والعقد. إلى حد التسامح فيه وعدم الالتفات إليه، وهذا غير العصمة التي تعني عدم صدور الخطأ أصلاً. ولو أن آراء أهل الحل والعقد معصومة دائماً فهذا يعني عصمة كل النظم السياسية القائمة على الشورى وتداول الرأي، وقد يدعى أن عصمة أهل الشورى تحصل بتأييد إلهي وعناية من الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا الادعاء باطل أيضاً، فما أكثر الهيئات الاجتماعية والسياسية الإسلامية التي زلت في قراراتها بما جز على المسلمين قديماً وحديثاً المحن والمآسي؟ ولو كان الإسلام قد أعطى مثل هذه المنزلة والكرامة لجماعة الحل والعقد لشاهدنا تأكيد القرآن عليها واهتمام النبي ﷺ بها ولدارت حولها أسئلة كثيرة من المسلمين محاولين استيضاحها من النبي ﷺ - كما تساءلوا عن كثير من الأمور الأقل أهمية والأدنى درجة مما نحن فيه -



ولمّا تركت هذه المسألة غامضة مبهمّة.

فكلّ هذه الاحتمالات باطلّة لا أساس لها، ويتعيّن بالتالي ما قالت به الإمامية من أنّ المراد هم أفراد معصومون من هذه الأمة منزّهون في أفعالهم وأقوالهم عن الخطأ والزلل. أمّا معرفة هؤلاء فهي موكولة إلى الله ورسوله. وقد عيّنهم آيات مثل آية التطهير وآية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾<sup>(١)</sup>، كما شخّصتهم أحاديث جنة مثل حديث الثقلين، أو حديث الغدير. أو أحاديث أخرى فسرت آية أولي الأمر بالائمة الاثني عشر، وقد وردت من طرق الفريقين.

فمن طرق السنة ما عن تفسير مجاهد: أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، حين خلفه الرسول صلى الله عليه وآله بالمدينة فقال: «يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيا؟» فقال: يا أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup> أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال: ﴿أخلفني في قومي وأصلح﴾ فقال الله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ قال: علي ابن أبي طالب وآله الله أمر الأمة بعد محمد صلى الله عليه وآله وحين خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله فأمر الله العباد بطاعته وترك خلافه»<sup>(٣)</sup>.

عن إبراهيم بن محمد الحمويّ وهو من أعيان علماء العامة في حديث: «قال - يعني أمير المؤمنين عليه السلام - : أنشدكم الله أعلمون حيث نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وحيث نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وحيث نزلت: ﴿... لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ قال الناس: يا رسول الله أخصّة في

(١) الحاشية: ٥٥.

(٢) في المصدر: يا عليّ.

(٣) البحراني، السيد هاشم، غاية المراد: ص ٢٦٣ / باب ٥٨ / ج ١، نقلاً عن ابن شهر آشوب عن تفسير مجاهد.

بعض المؤمنين أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ أن يعلمهم ولاة أمرهم وأن يفسّر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وحجّهم فينصّبني للناس بغدير خم، ثم خطب وقال: أيّها الناس أتعلّمون أنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: قم يا عليّ، فقامت فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، فقام سلمان فقال: يا رسول الله، ولاء كماذا؟ فقال: ولاء كولايتي، من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فكثير النبي ﷺ وقال: الله أكبر تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية عليّ بعدي، فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله، هؤلاء الآيات خاصّة في عليّ، قال: بلى، فيه وفي أوصيائي الى يوم القيامة. قالوا: يا رسول الله يتهم لنا، قال: عليّ أخي ووزير ووارثي ووصيّي وخليفتي في أمّتي ووليّ كلّ مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن ثم الحسين ثم تسعة من ولد ابني الحسين واحداً بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ الحوض، فقالوا كلّهم: اللهمّ نعم قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت»<sup>(١)</sup>. هذا ما ورد بطرق الستة.

أما ما ورد عن الشيعة فروايات كثيرة متواترة.

منها: صحيحة أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ فقال: نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين، فقلت له: إنّ الناس يقولون: فما له لم يسمّ عليّاً وأهل بيته في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: فقال فقولوا لهم إنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة لم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر لهم ذلك، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر لهم ذلك، ونزل الحجّ فلم يقل لهم طوفوا

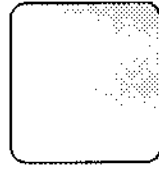
(١) تبحراني، السيد هشام، غاية المعرّف: ٢٦٤ - ٢٦٥، باب ٥٨ / ج ٤، نقل عن الجمهوري في مرتبة المعصّين: ج ١ /

أسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ في عليّ والحسن والحسين فقال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعليّ مولاه، وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فأني سألت الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك، وقال: لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هديّ ولن يدخلوكم في باب ضلالة، فلو سكت رسول الله ﷺ فلم يبين من أهل بيته لأدعاه آل فلان وآل فلان»<sup>(١)</sup> الحديث.

ومنها: عن جابر بن يزيد الجعفي قال: «سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ فمن أولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين بعدي، أولهم عليّ بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمّد بن عليّ المعروف في التوراة بالباقر ستدرکه يا جابر فإذا لقينته فاقراه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمّد ثم موسى بن جعفر ثم عليّ بن موسى ثم محمّد بن عليّ ثم عليّ بن محمّد ثم الحسن بن عليّ ثم سمّي وكنيتي حجة الله في أرضه وبقينته في عباده ابن الحسن بن عليّ، ذلك الذي يفتح الله - تعالّى ذكره - على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الذي يغيب عن شعبته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، قال جابر: قلت له: يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال: إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم يستضيئون بنوره ويتنفعون بولائه في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلّأها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سرّ الله ومخزون علمه فاكتمه إلا عن أهله»<sup>(٢)</sup>. وقد روى هذا المضمون عن القرّيقين متواتراً.

(١) غاية المراد: ص ٢٦٥ - ٢٦٦ / ج ٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٧ / ج ١٠.



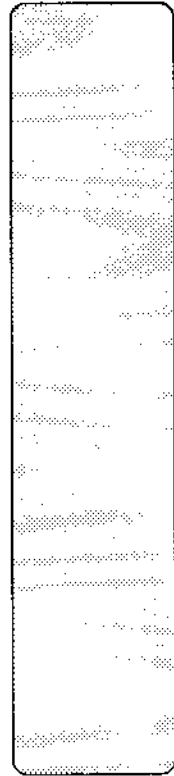
## الفصل الرابع

### الولاية الزاكية

#### آية الولاية

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ  
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿  
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ  
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

(المائدة: ٣)





ومن الآيات القرآنية ذات العلاقة بنظرية الإمامة هي آية الولاية، وسنحاول في الصفحات التالية استنطاقها واستنتاج بعض المعطيات منها.

## الركوع

الركوع هو الانحناء وانخفاض الرأس، ويستعمل للتواضع والتخضع، وبمعنى انخفاض الحال وانحطاطها، قال في القاموس: «ركع الشيخ: انحنى كبراً أو كبا على وجهه، وافتقر بعد غنى، وانحطت حاله، وكل شيء يخفض رأسه فهو راکع»<sup>(١)</sup>.

وفي المفردات: «الركوع: الانحناء، فتارة يستعمل في الهيئة المخصصة في الصلاة كما هي. وتارة في التواضع والتذلل إما في العبادة وإما في غيرها»<sup>(٢)</sup>.

فيظهر من ذلك أن لفظ الركوع أُريد به في بدء الأمر الانحناء الحسي. ثم استعير في استعمالات معنوية كالتواضع والتذلل والافتقار بعد الغنى.

## الولاية ومفهومها في القرآن الكريم

الظاهر من تتبع موارد الاستعمال وكنمات اللغويين أن الأصل في معنى الولاية هو القرب والدنو، ويلزمه الاتصال والتأثير، وقد يقارنه التصرف

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس: ص ٩٣٤.

(٢) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص ٢٠٢.

والتدبير والمحبة والنصرة.

قال في أساس البلاغة: «وليه ولياً: دنا منه، وأوليته إياه: أدنيته»<sup>(١)</sup>.  
وفي القاموس: «الولي: القرب والدنو... والولي اسم منه والحب والصديق  
والنصير»<sup>(٢)</sup>.

وقال الراغب في المفردات: «الولاء والتوالي أن يحصل شيان فصاعداً  
ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث  
النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد»<sup>(٣)</sup>.

وكما استظهرنا في مفردة «الركوع» نستظهر في مفردة «الولاية» أيضاً أن  
مادة الكلمة وضعت أول مرة للقرب الحسي، ثم توسع فيها فاستعملت في  
المعنويات والمعقولات، ذلك أن الغرض من وضع الألفاظ هو التفاهم والتعبير  
عن الإحساسات والمشاعر والأفكار التي في ذهن المتكلم ونقلها إلى السامع،  
ولا ريب أن معرفة الإنسان بالمحسوسات متقدمة على معرفته بالمعقولات.  
فلا بد أن تكون الألفاظ المستعملة في المعقولات قد أستعملت في الوهلة  
الأولى في المحسوسات، ثم حصل توسع في الاستعمال فأصبحت تستعمل في  
المعقولات أيضاً.

وهكذا، فالولاية لفظ وضع للقرب الحسي، ثم توسع في الاستعمال فصار  
يشمل المعقولات والمعنويات، والقرب غير الحسي قد يكون حقيقياً كقرب  
العلّة من المعلول، وقد يكون اعتبارياً تمّ اعتباره لغرض التوصل إلى الآثار

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة: ج ٢ / ص ٥٢٨.

(٢) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس: ص ١٧٣.

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: ص ٥٣٣.

المرتبة عليه، كما هو الشأن في المفاهيم الاعتبارية.

ويستعمل القرب في الزمان والمكان والوجود الحقيقي والمنزلة الاعتبارية، وله في جميع هذه الحالات معنى واحد، لأن تعدد الاستعمال لا يوجب تعدد المعنى، وكذلك الولاية لها معنى واحد يسري في حالات وموارد متعدده ومصاديق مختلفة، ويمكن تمييز المصاديق بعضها عن البعض الآخر بالقران والمناسبات التي تحق بالكلام أو حال المتكلم، فمثلاً إذا لوحظ القرب بين فردين مشتركين في أسرة واحدة كان الولي بمعنى ذي الرحم والوارث، وإذا لوحظ بين شخصين كل منهم أجنبي عن الآخر أفاد معنى الصديق والناصر والمعين، وإذا لوحظت ضمن ذلك مزية زائدة لأحدهما على الآخر أفاد القرب هنا معنى ولي الأمر والمتصرف بالتدبير كالسيد بالنسبة للعبد وولي الطفل، وقد يلاحظ بين شخص ومجتمع فهنا يفيد معنى الحكومة وتدبير الأمر لا غير. وهو يستلزم الودّ والعون بين الحاكم والمحكوم. ولكن ذلك لا يعني أن المراد بالقرب هو العون والود، لأنّ العون والود أمرٌ يستلزمه القرب في كل موارد الاستعمال المذكورة.

وقد استعملت الولاية بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم فقد استعمل «الولي» و «الوالي» و «المولى» في الله تعالى، وسمى الملائكة «أولياء» المؤمنين، وسمى الطاغوت والشياطين «أولياء» الكافرين، وذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وكذلك الظالمين. ونهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين «أولياء»، وحجب «ولاية» المؤمنين عن الذين لم يهاجروا من المؤمنين مع الأمر بنصرهم عند الاستنصار، واستعمل «الولي» أيضاً في الوارث وولي الدم والصديق.

وإليك نماذج من الآيات الكريمة التي وردت فيها مادة



(الولاية) ومشتقاتها.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾<sup>(٣)</sup>  
 ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تُجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾<sup>(٥)</sup>  
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ  
 هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾<sup>(٧)</sup> ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿وَالَّذِينَ  
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>(٩)</sup> ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿وَلَا تَسْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾<sup>(١١)</sup>، وقال  
 سبحانه حكائية عن الملائكة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾<sup>(١٢)</sup>، وقال  
 عز وجل في الشياطين: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> ﴿وَالَّذِينَ  
 كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾<sup>(١٤)</sup> ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾<sup>(١٥)</sup>

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) البقرة: ١٩.

(٣) الرعد: ١١.

(٤) العنكبوت: ٢٢.

(٥) الكهف: ١٧.

(٦) محمد: ١١.

(٧) الكهف: ٤٤.

(٨) الشورى: ٨.

(٩) نازم: ٣.

(١٠) العنكبوت: ٤١.

(١١) الأعراف: ٣.

(١٢) فصلت: ٣١.

(١٣) الأعراف: ٢٧.

(١٤) البقرة: ٢٥٧.

(١٥) النساء: ٧٦.

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَتُهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ﴾<sup>(٩)</sup> ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَأَخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُم

(١) مريم: ٤٥.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) الأنفال: ٧٢-٧٣.

(٤) الجاثية: ١٩.

(٥) آل عمران: ٢٨.

(٦) النساء: ١٣٩.

(٧) المائدة: ٥١-٥٢.

(٨) المائدة: ٥٧.

(٩) الممتحنة: ١.

الظالمون ﴿١﴾ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴿٢﴾ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴿٣﴾ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لولته سلطاناً ﴿٤﴾ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴿٥﴾ .

### دلالات آية الولاية

وإذا استنطقنا آية الولاية وجدناها تشتمل على عدة دلالات منها:

١ - إنها لا تتحدث عن ولاية بين أفراد متساوين بالدرجة، فهي ليست من قبيل: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ الذي يفهم منه تبادل الولاية بالنحو الذي يدفعنا الى تفسيرها بالنصرة المتبادلة، وإنما تتحدث عن ولاية فرد ممتاز على من سواه من الأفراد بدلالة اقتران ولاية ﴿الذين آمنوا﴾ بولاية الرسول وولاية الله من جهة، وتوصيفهم بدرجة ممتازة من العبادة والتقوى ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ من جهة ثانية، ولذا لا يفهم من سياق الآية النصرة المتبادلة، بل وكما يفهم من ولاية الرسول على المؤمنين الحكومة والإدارة كذلك يفهم من ولاية المؤمنين المقارنة لها، الحكومة والإدارة الاجتماعية والسياسية أيضاً.

(١) التوبة: ٢٣.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) مريم: ٥ - ٦.

(٤) الإسراء: ٣٣.

(٥) فصلت: ٣٤.

٢- إن اقتران ولاية ﴿الذين آمنوا﴾ بولاية الله والرسول مشعر بكون الأولى امتداداً واستمراراً للثانية ومنفردة عليها. ومن الطبيعي أن الفرع يحمل كل خصائص الأصل إلا ما خرج بالدليل، فتبقى ولاية الله هي الأصل والمنع. وولاية الذين آمنوا فرع مستمد منها عبر واسطة هي ولاية الرسول ﷺ، وولاية الله مستقلة ذاتية، وولاية من عداه تابعة مكتسبة، ولا يوجد دليل يحدد الولاية بمجال دون آخر، فيبقى الإطلاق سارياً في ولاية المؤمنين، فتكون ولاية تكوينية وتشريعية وسياسية كما هي ولاية الله والرسول.

٣- إن الآية حصرت الولاية ﴿إنما وليكم﴾ بنوع خاص من الأفراد، وإذا لاحظنا نوع الولاية الذي أعطي لهم وهو الولاية السياسية والتشريعية والتكوينية من جهة، وربطنا بين الآية وآية أولي الأمر الذين افترض الله طاعتهم وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله من جهة ثانية. أدركنا أنه ليس المقصود من الآية إصدار حكم على نحو القضية الحقيقية باعطاء الولاية لكل من أقام الصلاة وأعطى الزكاة وهو راعٍ. ولو كان الأمر كذلك لتيسرت الولاية للملايين من الطامعين والانتهازيين. وإنما هي بصدد الإشارة الى فرد معين بالخارج وآخرين بدرجة على نحو القضية الخارجية ممن يستحقون الدائرة الواسعة من الولاية بمجالاتها الثلاثة السياسية والتشريعية والتكوينية.

وبتعبير آخر: إن الآية إما أن تحمل على القضية الحقيقية أو على القضية الخارجية، وحملها على القضية الحقيقية متعذر لأنه سيلزم منها حصول الولاية التشريعية والتكوينية إضافة الى السياسية لكل من اتصف بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة راعياً، وهذا المعنى لا يمكن الأخذ به حتى على فرض تحقق هذه الصفة صدقاً وإيماناً لا نفاقاً ولا رياءً، لأن الولاية التشريعية والتكوينية ليست من

الصفات المكتسبة. وإنما هي من المراتب القريبة التي تحتاج الى جعل وتعيين شخصي قائم على أساس تشخيص مسبق باستحقاق الفرد المعين لأن يناله عهد الله وتمتد إليه قناة السماء، فيكون ناطقاً باسمها ومعتبراً عما تريد وما لا تريد. فيعطى هذه الولاية.

وحيث دلت الآية على إتساع دائرة الولاية الى الولاية التشريعية والتكوينية وعدم اقتصرها على الولاية السياسية من جهة، وأن الولاية من هذا النوع مرتبة قريبة غير مكتسبة تحتاج الى جعل وتعيين شخصي من جهة ثانية. لذا فإن حملها على القضية الخارجية هو المنعني، بأن يقال: إن الآية أشارت إلى فرد معين، وليس غرضها اعطاء ضابطة كلية بحيث يكون كل من التزم بها مستحقاً للولاية. بل غرضها الدلالة على ذلك الفرد وتوجيه المسلمين نحوه، فمن هو ذلك الفرد الذي قصده الآية وعبرت عنه بـ: ﴿الذين آمنوا الذين يقيمون...﴾ ؟

### الروايات المفسرة

من الواضح أن الآية لم تكشف عن الشخص المقصود بالولاية، وفي مثل هذه الحالة لا بد لنا من الرجوع الى السنة الشريفة التي تكفلت ببيان مجملات الكتاب وتفاصيل الأحكام. قال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد بين الرسول ﷺ بأحسن بيان وأبلغ دلالة وأفضل طريقة بأن المراد

بالآية هو أمير المؤمنين عليه السلام وأنها نزلت بشأنه. وروى الفريقان ذلك في كتبهم الحديثية والتفسيرية والتاريخية بما لا يبقى معه شك أو تردد، وشأن نزولها هو تصدق الإمام علي عليه السلام بخاتمه الشريف وهو راعع يصلي في المسجد، وقد مدحه حسان شاعر الرسول لأجل هذه المنقبة في أبيات نقلها مثل: الخطيب الخوارزمي في المناقب<sup>(١)</sup> وشيخ الإسلام الحموي في فرائد السمطين<sup>(٢)</sup> و صدر الحفاظ الكنجي في الكفاية<sup>(٣)</sup> وسبط بن الجوزي في التذكرة<sup>(٤)</sup> وجمال الدين الزرندي في نظم درر السمطين<sup>(٥)</sup> على ما حكاه العلامة الأميني في الغدير<sup>(٦)</sup> وقد ذكرها الآلوسي في تفسيره<sup>(٧)</sup> في ذيل الآية الشريفة، وأخرجها جم غفير من أئمة الحديث والتفسير والكلام، منهم: أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره<sup>(٨)</sup> والطبري في تفسيره<sup>(٩)</sup> والرازي في تفسيره<sup>(١٠)</sup> والخازن في تفسيره<sup>(١١)</sup> عن عدة من الصحابة والتابعين، ومنهم من صرح بصحتها.

(١) الخطيب الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب: ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) الحموي، إبراهيم بن محمد، فرائد السمطين: ج ١ / ص ١٩١.

(٣) الكنجي، محمد بن يوسف، كفاية الطالب: ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٤) سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص: ص ١٨ - ١٩.

(٥) الزرندي، محمد بن يوسف، نظم درر السمطين: ص ٨٧ - ٨٨.

(٦) الأميني، عبد الحسين، الغدير: ج ٢ / ص ٥٢ - ٥٨.

(٧) الآلوسي، محمود، روح المعاني: ج ٦ / ص ١٦٧.

(٨) حكى صاحب الغدير ذلك عنه في: ج ٢ / ص ٥٢ من الغدير.

(٩) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان: ج ٦ / ص ٢٨٨.

(١٠) الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٦ / ص ٢٨.

(١١) الخازن، علي بن محمد، تفسير الخازن: ج ١ / ص ٤٩٦.

والآيات التي أنشأها حسان في المناسبة المذكورة هي:

لما حسن تفديك نفسي ومهجتي وكسل بعبي، في أيه وسارعه

وقد أنهى صاحب الغدير أسماء الناقلين لهذه الروايات الى ستة وستين رجلاً<sup>(١)</sup>. بينما قد تبلغ روايات الشيعة حدّ التواتر، ورغم كلّ ذلك تقرّ القلم الفاتر يقول: إن قصّة الخاتم ونزول الآية فيها موضوعة مختلفة باجماع العلماء<sup>(٢)</sup>! فهل أنّه لا يعدّ هؤلاء الأكابر من الضريقين عداً؟ أم أنّه لم يقف على كلماتهم ولم يطّلع على كتبهم وموسوعاتهم؟ قاتل الله العصبية فإنّها تعمي وتصم: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾<sup>(٣)</sup>.

إليك بعض ما ورد في الباب:

فعن السنّة روايات كثيرة:

منها: ما أخرجه الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي ذرّ الغفاري قال: أما إنّي صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه الى السماء وقال: اللهم اشهد إنّي سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان عليّ ﷺ في الصلاة راکعاً فأوماً إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمراي من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه الى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني،

— أذهب مدحى والمحين ضايحا  
فدانت الذي لحظيت إذ أنت راکع  
وبخاتمك الميمون يا خير سيد  
فانزل في بيت الله خير ولاية  
وما أمدح في ذل الإله بضايح  
فدانت نفوس القوم يا خير راکع  
وباخير شار ثم يا خير بايع  
وبينها في محكمات الشرائع

(١) الأميني، الغدير، ج ٣ / ص ١٥٦ - ١٦٢.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحميد، موجبات السنّة، ج ١ / ص ١٥٥.

(٣) الأنعام: ٨٩.

يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري ﴿ فأنزلت عليه قرآناً: ﴿ سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ﴾ اللهم وأني محمد نبيك وصفيك، اللهم واشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري، قال أبو ذر رضي الله عنه فما استتم دعاءه حتى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله عز وجل قال: يا محمد اقرأ ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكعون ﴾ <sup>(١)</sup>.

ومنها: ما ذكره الخوارزمي موفق بن أحمد في جواب مكاتبة معاوية الى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص قال له:

«وقد علمت يا معاوية، ما أنزل في كتابه في علي من الآيات المتنوعات في فضائله التي لا يشاركه فيها أحد، كقوله تعالى: ﴿ يوفون بالندر ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله... ﴾ وقوله تعالى: ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وقد روى ابن المغازلي في هذا المعنى أربع روايات <sup>(٣)</sup>.

وأما عن الشيعة فروايات كثيرة جداً نشير الى بعضها:

منها: ما رواه محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن إبراهيم. عن أبيه. عن

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ١٠٢ - ١٠٣ / باب ١٨ / ج ١، والتغدير: ج ٢ / ص ٥٢، والعمامة لابن الأثير، الفصل ١٥ / ص ٥٩.

(٢) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ١٠٤ - ١٠٥ / ج ١، نقلاً عن المناقب للخوارزمي: ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق: ص ١٠٤، الأحاديث ٣ - ٦، نقلاً عن المناقب لابن المغازلي: ص ٣١١ - ٣١٣ / ج ١ ص ١٣٥٤.



ابن أبي عمير. عن عمر بن أذينة، عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية وأبي الجارود جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي وأُنزل عليه ﴿ إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وفرض من ولاية أولي الأمر. فلم يدروا ماهي. فأمر الله محمداً عليه السلام أن يفتر لهم الولاية كما فتر الصلاة والزكاة والصوم والحج. فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاقت صدره وراجع ربه عز وجل، فأوحى الله عز وجل إليه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فصدع بأمر الله - تعالى ذكره - فقام بولاية علي يوم غدیر خم فنادى الصلاة جامعة. وأمر الناس أن يبلغ الشاهد منهم الغائب - قال عمر بن أذينة: قالوا جميعاً غير أبي الجارود - وقال أبو جعفر عليه السلام وكانت الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: «لأنزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض»<sup>(١)</sup>.

ومنها: ما عن ابن بابويه، قال: حدثنا علي بن حاتم عليه السلام قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني، قال: حدثنا جعفر بن عبد الله المحمدي، قال: حدثنا كثير بن عياش عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال: إن رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبدالله بن سلام وأسد وثلعة وابن يامين وابن صوريا، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا نبي الله، إن موسى عليه السلام أوصى

(١) الكشي، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ١ / ص ٣٤٩ / ح ٤، كذلك غاية المرام: ص ١٠٧، باب ١٦ / ح ٥.

الى يوشع بن نون؛ فمن وصيتك يا رسول الله؟ ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قوموا، فقاموا وأتوا المسجد، فإذا سائل خارج فقال: يا سائل ما أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم هذا الخاتم، قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي؛ قال: على أي حال أعطاك؟ قال: كان راكعاً، فكبر النبي ﷺ وكبر أهل المسجد، فقال النبي ﷺ علي وليكم بعدي، قالوا: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبعلي بن أبي طالب ولياً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١).

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: والله تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل في ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل (٢).

وقريب من ذلك روايات كثيرة أخرى تظافر على نقلها أصحابنا الإمامية. مثل ما عن المفيد في الاختصاص (٣)، والطوسي في أماليه ومجالسه (٤)، والعباشي في تفسيره (٥) والطبرسي في الاحتجاج (٦) وغيرهم.

(١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٢٧٧.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج ٢ / ص ١٦٢.

(٥) العبّاشي، محمد بن مسعود، تفسير العبّاشي: ج ١ / ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٦) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١ / ص ٢١٣.

## شبهات وردود

وهناك شبهات قد ترد على هذا التفسير لا بد من ذكرها والإجابة عنها وهي:  
الشبهة الأولى:

إن الآية جاءت في سياق يتناقض وهذا التفسير، والسياق هو نهي المؤمنين عن تولي اليهود والنصارى والمساعدة إليهم، ولما كانت الولاية المنفية في هذا السياق هي ولاية النصر والمعونة. لا بد أن تكون الولاية المأمور بها في الآية التي بعدها وهي آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ هي ولاية النصر والمعونة أيضاً، فالآية السابقة رفضت ولاية منحرفة خاطئة، والآية اللاحقة طالبت بولاية مستقيمة صحيحة، والسياق يقتضي وحدة نوع الولاية المرفوضة مع الولاية المطلوبة. وبما أن الولاية المرفوضة هي ولاية المعونة والنصرة فالولاية المطلوبة لا بد أن تكون كذلك.

وهنا جوابان على هذه الشبهة.

الجواب الأول: إن وحدة السياق بين الآيتين غير محرزة وغير أكيدة، ذلك أن جل الروايات الواردة في شأن نزول الآية تدل على أنها نزلت بنحو مستقل عما قبلها. فلا يمكن التعويل على السياق في تفسير الآية، ولو قلنا بوحدة السياق بينهما لزم من ذلك أن تكون ولاية النبي ﷺ، هي ولاية نصر ومعونة. وحيث لا يساعد الأدب القرآني على عد الرسول مجرد ناصر للمؤمنين. لكونه أعلى شأنًا من ذلك. وأن تولي المؤمنين له هو تولي انقياد وتبعية. فلزم من ذلك أن تكون ولاية ﴿الذين آمنوا...﴾ المقرونة بولاية الرسول هي كذلك أعلى من

ولاية النصره، وأن يكون تولّي المؤمنين لهم هو تولّي انقياد وتبعية، وليس ذلك إلا الإمارة والحكومة.

الجواب الثاني: إننا حتى لو آمنّا بوحدة السياق بين الآيتين فإنّ التفسير المختار لا يخلّ بها، بل يتناسب معها تماماً، وذلك لأنّ الولاية المرفوضة في الآية السابقة، هي ولاية المؤمنين للكفار، والولاية المطلوبة في الآية اللاحقة، هي ولاية الله والرسول والذين آمنوا، والولاية في الحالتين تعني القرب والدنو، حيث ذكرنا في ما سبق أنّ للولاية معنى واحد مشترك بين مصاديقها المختلفة يلازمه الاتصال والتأثير. ومخالفة السياق إنّما تنزّم إذا افترضنا....

#### الشبهة الثانية:

إنّ التفسير المختار للآية مبني على أساس أنّ المقصود بـ ﴿الذين آمنوا﴾ هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهذا الأسلوب من التعبير خلاف الظاهر، لأنّ الظاهر من لفظ الجمع ﴿الذين آمنوا﴾ إرادة جماعة لا فرد واحد<sup>(١)</sup>.

والجواب: إنّنا نتميّز بين حالتين: حالة اطلاق لفظ الجمع وإرادة الواحد، وحالة إعطاء حكم كلي أو الإخبار بمعرف جمعي في لفظ الجمع، لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، وإن لم ينطبق هذا العنوان في الخارج إلا على فرد واحد، ولم يجد له إلا مصداقاً واحداً، واللغة ترفض الحالة الأولى من الاستعمال ولا ترفض الحالة الثانية، التي هي حالة شائعة استخدمها القرآن مرات عديدة، ولم يحصل أن توقف أحد من المفسرين في أي منها، فلماذا ظهر التوقف والإشكال في هذا المورد دون باقي الموارد؟ ومن تلك الموارد قوله تعالى:

(١) ذكر هذه الشبهة عدد من علماء السنة، منهم صاحب تفسير المنار في ج ٦ / ١٦٤٢.

﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾<sup>(١)</sup> في الآية السابقة على آية الولاية من سورة المائدة، حيث استخدم القرآن لفظ الجمع مع أن القائل - على ما رواه القوم - كان فرداً واحداً هو عبدالله بن أبي، وكذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾<sup>(٢)</sup> وروي في قوله تعالى: ﴿تلقون إليهم بالموءدة﴾<sup>(٣)</sup> أن المراد بذلك هو طالب بن أبي بلتعة، وقد عدّ العلامة الأميني في الغدير عشرين مورداً قرآنيّاً من هذا القبيل<sup>(٤)</sup>.

ومن جهة أخرى يلاحظ أيضاً أن الروايات التي فسرت الرواية بالإمام علي عليه السلام، قد رواها عرب أقحاح، ممّن لم تختلط لغتهم بلغات ولهجات غير عربية؛ ولو كان هذا الإشكال وارداً من الناحية اللغوية لالتفت إليه هؤلاء الرواة قبل غيرهم، ممّن اختلطت ألسنتهم بالسنة غير العرب ولم يدركوا أساليب اللغة العربية بالدقة التي كان عليها أولئك الرواة.

وشيوع هذا الأسلوب في اللغة العربية يعطينا عن التماس المبرر لاستعمال القرآن الكريم له في هذه الآية. ومع ذلك من الممكن القول: بأن القرآن الكريم قد استعمل هذا الأسلوب لدفع الأضغان، وما تضمّره بعض النفوس من العداوة لأمير المؤمنين عليه السلام، فجاء بعنوان جمعي من شأنه إثارة الرجاء لدى الآخرين في تحقق الولاية لهم، بالإتيان بما قام به الإمام علي عليه السلام، وإن كان القرار السماوي قد حصر الأمر بالإمام علي عليه السلام دون سواه من صحابة الرسول، والذي يدرس

(١) المائدة: ٥٢.

(٢) المائدة: ٨٠.

(٣) الممتحنة: ٤١.

(٤) الأميني، عروة الغدير، الغدير: ج ٣ / ص ١٦٣ - ١٦٧.

الوضع الاجتماعي والسياسي الذي كان سائداً آنذاك ومقدار ما كانت تضمّره نفوس الأعداء من الضغينة والحقد للإمام علي عليه السلام، يدرك مدى مقبولية هذا التحليل تاريخياً.

#### الشبهة الثالثة:

إن الظاهر من الآية والمتبادر منها عند إطلاق وصف ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ﴾ هو فعلية هذا الوصف، وحينئذ لو فسرنا الآية بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فستكون النتيجة هي تحقّق هذه الولاية من حين صدور الآية. ولم يقل بذلك أحد، ولا يستطيع أن يقوله لأنّ الولي آنذاك هو الرسول ﷺ، فيلزم من ذلك أنّ الولاية المقصودة في الآية هي النصرة والمعونة، لا ولاية التدبير والحكومة.

وجواب هذه الشبهة في ملاحظة استخدام الآية لفظ المفرد: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ﴾ وإعلانها عن أنّ الولاية تكون لثلاثة هم: الله، الرسول، الذين آمنوا، وكأنّها بصدد بيان منبع الولاية والحلقات المتسلسلة عنها، والمنع هو الله سبحانه، والحنقة الأولى النابعة عنه هي الرسول، والحنقة الثانية النابعة عن الرسول هي ﴿الذين آمنوا﴾، وحينما يكون المشرع الحكيم في سياق من هذا القبيل لا يفهم من كلامه فعلية الولاية لكلّ الحنقات في آن واحد، بل الذي يتبادر الى ذهن السامع هو مفهوم عام عن الولاية، فاذا نظر الى الواقع الخارجي وأراد تطبيق ذلك المفهوم عليه نظر الى تسلسل الحلقات وفهم حينئذ أولوية الحلقة السابقة بأن تكون فعلية دون الحلقة اللاحقة، فاذا فقدت الحلقة السابقة تحوّلت الفعلية الى الحلقة اللاحقة، والحلقة السابقة هي ولاية الرسول ﷺ التي كانت قائمة في زمن صدور الآية. ومع تحقّق ولاية الرسول فعلاً تبقى ولاية: ﴿الذين آمنوا﴾ موقفاً

قانونياً مستقبلياً، لا فعلية له في زمن حياة الرسول ﷺ .  
 وبتعبير آخر: إن الله سبحانه فوّض الولاية للرسول وأولي الأمر مع حفظ  
 التسلسل والأولوية، ففي حياة الرسول ﷺ لا ولاية لأولي الأمر. وإنما تصح  
 ولايتهم نافذة وفعلية بعد وفاته ﷺ .

والآية وإن كان غرضها الواقعي هو الإشارة إلى ولاية الإمام علي عليه السلام بعد  
 النبي على نحو القضية الخارجية - كما بيتنا من قبل - إلا أنها صاغت بيانها  
 الظاهري على نحو القضية الحقيقية لتحقيق مقاصد، ولعل من هذه المقاصد  
 دفع الضغائن والأحقاد المضمرة في بعض النفوس على الإمام ﷺ كما أسلفنا،  
 ولعل من هذه المقاصد أيضاً دفع توهم فعلية ولاية الإمام في زمن صدور الآية،  
 لأن القضية الحقيقية غرضها بيان الضابطة القانونية، ولا تشتط تحقق موضوع  
 هذه الضابطة في الخارج. وحيث إن موضوع ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام  
 لا تحقق له في زمن الرسول ﷺ فلا يستظهر من الآية فعليتها إلا بعد وفاة  
 الرسول، وتحقق الموضوع الذي تنطبق عليه الضابطة القانونية.

وعلى أية حال، فمهما يكن السامع لكلام المشرع الحكيم قليل الدراية، فإنه  
 مع ذلك لا يتصور بحقه أن يفهم من الآية ظهور ولايتين قانونيتين في زمن  
 واحد ومكان واحد لزعييمين وقائدين اثنين، ولا بد له من أن يستظهر الفعلية  
 لواحدة منهما فقط، ولا بد أن تكون تلك هي ولاية الرسول ﷺ .

#### الشبهة الرابعة:

إن إطلاق لفظ الزكاة على الصدقة المندوبة خلاف الظاهر، والتفسير

المختار للآية مبني على أن الإمام علي عليه السلام قد تصدق بالخاتم، وهي صدقة مندوبة لا تنسجم مع وصف الزكاة ﴿ويؤتون الزكاة﴾ المذكور في الآية.

وهذا الإشكال من أضعف ما قيل. لأن الزكاة المصطلحة في عرف المتشرعة والمتدتين إنما هي اصطلاح مستحدث لم يجر عليه القرآن الكريم الذي استعمل الزكاة في معناها العام الذي هو مطلق الإنفاق في سبيل الله. وقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ في هذا المعنى العام قبل تشريع الزكاة. المصطلحة كفريضة من الفرائض. فقال تعالى: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن المقصود بالزكاة في هاتين الآيتين مطلق الإنفاق لوجه الله تعالى.

#### الشبهة الخامسة:

وقيل أيضاً: لو أن الآية تدل على ولاية الإمام علي عليه السلام لكانت وثيقة قانونية يستطيع أن يشهرها للاحتجاج على خصومه في كونه الأحق من غيره بالإمارة والحكومة، وقد ذكر الرازي في تفسيره هذه الشبهة فقال: «ولو كانت هذه الآية دالة على إقامته لاحتج بها، وليس للقوم أن يقولوا إنه ترك للتقية، فإنهم ينقلون عنه أنه تمسك يوم الشورى بخبر الغدير والمباهلة وجميع فضائله ومناقبه. ولم يتمسك البتة بهذه الآية»<sup>(٣)</sup>.

وجواب هذه الشبهة: إن الآيات والأحاديث الدالة على إمامة الإمام علي عليه السلام كثيرة جداً. والاحتجاج على الخصوم لا يستلزم الإتيان بكل تلك الآيات

(١) مريم: ٣١.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، ج ٦ / ص ٣١.

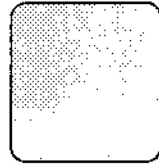


والأحاديث. ومن الممكن لصاحب الحق أن يحتج ببعض الأدلة ويستغني عن الباقي. وأهل المنطق وذوو الحجى يكتفون بدليل واحد إذا كان محكماً، بينما يكابر الكابرون حتى لو وضع أمامهم ألف دليل ودليل. وهذا أولاً.

وثانياً: إنه ﷺ قد احتج بهذه الآية مراراً، فقد روى أصحابنا - رضي الله عنهم - في حديث مناشدته لأبي بكر أنه قال: «فأنشدك بالله، ألي الولاية من الله مع رسول الله في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال: بل لك»<sup>(١)</sup> وفي حديث مناشدته يوم الشورى «فهل فيكم أحد أتى الزكاة وهو راعع فنزلت فيه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ غيري؟ قالوا: لا»<sup>(٢)</sup>.

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ١٠٨ / حديث ١٦ عن ابن بابويه بإسناده عن أبي سعيد الوراق.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٨ / ح ١٧ نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ١٦٢.



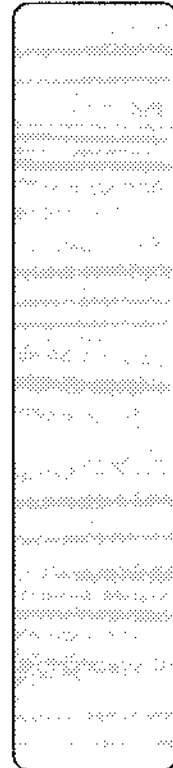
## الفصل الخامس

### الإمامة إمتداد للرسالة

#### آية التبليغ

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ \* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ \* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الشُّرُوعَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

(المائدة: ٦٥ - ٦٨)





وآية التبليغ هي إحدى الآيات التي تناولت قضية الإمامة والولاية وأشارت إلى مكانتها في التصور الإسلامي، وإذا أردنا التوصل إلى ذلك. فلا بد من تسيط أضواء كاشفة على الآية وما قبلها وما بعدها.

على فرض اتحاد آية التبليغ بسياق واحد مع الآيات الثلاثة الحافطة بها، فإنَّ الاستفادة من مجموعها هو تذكير النبي ﷺ بأنَّ أهل الكتاب لو أنهم آمنوا واتقوا وعملوا بما أنزل إليهم من الأحكام، لنالوا السعادة في الدنيا والآخرة. أمَّا سعادة الدنيا فوفرة النعم ونزول البركات من السماء، وأمَّا سعادة الآخرة فمغفرة الله ورضوانه وجناته، إلا أنَّ أكثرهم لم يتقوا ولم يؤمنوا وعملوا السيئات.

وفي هذا السياق تأتي آية التبليغ لتطلب من النبي ﷺ أن يقوم بتبليغ ما أنزل إليه وعدم الاعتناء بضلال أهل الكتاب، ولا بالعقبات التي توضع في طريق الرسالة، الذي لا يُتوقع مجيء يوم عليه يكون فيه خالياً من تلك العقبات، فإذا استمر النبي ﷺ في الانتظار فسوف لن يجد الفرصة التي يراها مناسبة للتبليغ وستبقى بعض الأحكام بدون تبليغ، ولذا فإنَّ عدم الاعتناء بتلك العقبات، والاعتصام بقدرة الله تعالى، الذي ضمن له رجوع كيد الأعداء إلى نحورهم وإبطال مؤامراتهم.

ثم يترقى الخطاب إلى مستوى الهجوم والتحدّي لأهل الكتاب. فتطلب الآيات الكريمة من النبي ﷺ أن يعلن لهم أنهم لا يملكون شيئاً يبرّر لهم هذا التبيح والغرور الذي هم عليه. وأنهم لن يحفظوا بشيء حتى يقيموا الثورة والإنجيل، ويعملوا بما أنزل إليهم من الله، ويدخلوا في الإسلام، ويؤمنوا بالنبوة الخاتمة التي بشرت بها كتبهم.

وضمن هذا السياق يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ ﴾ هو الدين الإلهي والرسالة الإسلامية بمجموعها بلا نظر الى تشريع خاص وحكم معين، وقد يكون المراد به أمراً خاصاً ولكنه ليس كباقي الأوامر والأحكام، وإنما هو أمر ينطوي على خصوصيات فريدة بحيث لا تضمن مصلحة الرسالة ولا مستقبلها بدونه، فكأنّ تبليغه لكل الرسالة وعدم تبليغه عدم تبليغ لكل الرسالة، ومن هنا جاءت خطورته، وحذر النبي ﷺ من أحابيل الأعداء وانتظاره الفرصة المناسبة للإعلان عنه، فجاءت آية التبليغ لتنتهي حالة الانتظار والتردد، وتزيل المخاوف والمحاذير، وتدعو النبي ﷺ الى أن يصدع بهذا الأمر الفيصل بين الإيمان والنفاق، والذي يكرّس مركزية الأمة الإسلامية في العالم، وهامشية أهل الكتاب فيهن بوصف أنّ الدور التاريخي قد انتقل منهم الى هذه الأمة التي أصبحت مرشحة لوراثة الأرض، بوصفها الأمة الصالحة ذات المبدأ الصالح، قال تعالى: ﴿ أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١).

وإذا لاحظنا أنّ آية التبليغ وما يحقّها من الآيات لم تكن أوّل ما نزل على الرسول ﷺ عرفنا أنّ عنوان: ﴿ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ ﴾ الوارد فيها لا ينطبق إلّا على تشريع متأخر لم يكن النبي ﷺ قد بلغه بعد، بل إنّها تدل على حكم يراد إعلانه كحكم أخير، سيكون به ضمان استمرار الرسالة ومستقبلها، كما هو المفهوم صراحةً من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ حيث يدل هذا القول على أنّ النبيّ قد بلغ الرسالة ولم يبق منها إلّا شيء به ضمان مستقبل الرسالة واستمرارها، ولذا فإنّ عدم تبليغ هذا الحكم سيعني عدم تبليغ أصل الرسالة، إذن فما هو هذا الحكم العظيم الذي له هذه الخصوصيات: خشية الرسول ﷺ فيه من الناس وهو الذي لم يخش المشركين ولا أهل الكتاب،

(١) الأنبياء: ١٠٥.

وعدم تبليغ هذا الحكم يعني عدم تبليغ أصل الرسالة، وهو حكم جاء في أواخر حياة النبي ﷺ، إن هذه الخصوصيات لا تنطبق على أحكام المواريث والقصاص والديات والحدود وأشباهها، وتنطبق على مسألة الإمامة والخلافة التي قد تثير النزاعات الداخلية والعصيات القبلية، ويخشى الرسول ﷺ فيها من أناس ليسوا مشركين ولا من أهل الكتاب، وإنما هم من صحابته وأعيان أمته، ويصدق بحقها أن عدم تبليغ الحكم الإلهي فيها بمثابة عدم تبليغ أصل الرسالة، وهو أمر به يكمل الدين وتتم النعمة، وبدونه تندرس الشريعة وتخفى حقائق الرسالة.

وهكذا نتوصل إلى مراد ودلالة آية التبليغ بناءً على افتراض وحدة السياق بينها وبين الآيات، التي تحقّقها من قبل ومن بعد، وأما بناءً على انفراد آية التبليغ عمّا قبلها وبعدها فالأمر أظهر وأجلى من أن يحتاج إلى عناية فكرية زائدة، وقد وردت روايات كثيرة متواترة بطرق الفريقين تؤكد ما استظهرناه من هذه الآيات<sup>(١)</sup>.

### روايات مدرسة الخلفاء

فمن طرق السنة وردت روايات متظافرة عن سبعة نفر من الصحابة، وها نحن نوردّها مع ذكر المصادر التي نقلتها، وهي:

(١) يمكن تأييد فرضية وحدة السياق، بأن الآية السابقة على آية التبليغ والآية اللاحقة لها شتمتا على الضميمة بأهل الكتاب واستنكار تركهم الأحكام الإلهية وعدم تطبيق الكتاب، وهذا المعنى يدخل في صميم آية التبليغ بوصف أن هذه الآية تصدّت لتعيين الإمامة بعد النبي ﷺ وبيان مستقبل عمية التطبيق الإسلامي، وتحديد الفرد الذي سيتولّى إقامة الكتاب في المسلمين بعد النبي ﷺ، وكان الآيتين الحافيتين بآية التبليغ أرادتا تحذير النبي ﷺ مما حصل عند أهل الكتاب من عدم إقامة الأحكام الإلهية، وأن آية التبليغ بما تنطوي عليه من تعيين الفرد الذي سيتولّى إقامة الكتاب بعد النبي ﷺ بمثابة الحل لهذه المشكلة. وهذا المعنى يؤكد الروايات التي فسرت آية التبليغ بخاتمة العدير ولا يتنافى معها «بعد الكتاب».

## ١- رواية زيد بن أرقم:

عن الحافظ أبي جعفر بن جرير الطبري في كتاب «الولاية في طرق حديث الغدير» عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي ﷺ بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع، وكان في وقت الضحى وحر شديد، أمر بالدوحات فقامت، ونادى الصلاة جامعة، فاجتمعنا فخطب بخطبة بالغة ثم قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ إِلَيَّ ﴿بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرئيل أن يستعفي لي ربي، لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذنين لي واللائمين. لكثرة ملازمتي لعلي وشدة إقبالي عليه، حتى سموني «أذناً» فقال تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت، ولكني بسترهم قد تكزمت، فلم يرض الله إلا بتبليغي فيه.

فاعلموا معاشر الناس ذلك، فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً، وقد فرض طاعته على كل أحد، ماضٍ حكمه، جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم وعليّ إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى يوم القيامة، لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حرام إلا ما حرّم الله ورسوله، وما من علم إلا وقد أحصاه الله في ونقلته إليه، فلا تصلّوا عنه ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، لن يتوب الله على أحد أنكره، ولن يغفر له، حتماً على الله إن يفعل ذلك أن يعذبه عذاباً نكراً أبدياً.

فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدمت لغد.

افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا متشابهه، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا أخذ بيده، وسائل

بعضده، ومعلمكم أن من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، وموالاته من الله عزّ وجلّ أنزلها عليّ. ألا وقد أدّيت، ألا وقد بلغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، لا تحلّ إمرة المؤمنين بعدي لأحدٍ غيره، ثمّ رفعه الى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي ﷺ وقال: معاشر الناس، هذا أخي ووصيّي، وواعي علمي، وخليفتي عليّ من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي.

وفي رواية: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، والعن من أنكره، واغضب علي من جحد حقّه، اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في عليّ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بإمامته، فمن لم يأتّم به وبمن كان من ولدي من صلبه الى القيامة فأولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون، إن إبليس أخرج آدم من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد، فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزلّ أقدامكم، في عليّ نزلت سورة ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾. معاشر الناس آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل أن تطمس وجوهاً فتردها على أديبارهم أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، النور من الله فيّ ثم في عليّ ثم في النسل منه الى القائم المبدئ، معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا يُنصرون، وإن الله وأنا بريان منهم، إنهم وأنصارهم وأتباعهم في الدرك الأسفل من النار، وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً، فعندها يفرغ لكم أيتها الثقلان، ويُرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران، الحديث<sup>(١)</sup>.

## ٢- رواية أبي سعيد الخدري

عن ابن أبي حاتم وابن مردويه والواحدي النيسابوري بإسنادهم الى أبي سعيد الخدري أنّ الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدِير خمّ في عليّ بن أبي طالب ﷺ<sup>(٢)</sup>.

(١) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ١/ ص ٢١٤ - ٢١٦ نقلاً عن ضياء العالمين، وهو كتاب في الإمامة للمواي أبي الحسن العاملي «توفي حدود ١١٤٠ هـ» أحد تلامذة الشيخ المجلسي، نسخه موجودة في بعض مكبات النجف الأشرف، انظر الدرعية: ج ١٥ / ١٢٤.

(٢) الغدير: ج ١ / ص ٢١٦، و ج ٥ / ص ٢١٨ و ج ٨ / ص ٢٠٣ نقلاً عن شوكاني في فتح القدير: ج ٢ / ص ٦٠



## ٣- رواية ابن عباس

عن الحافظ أبي عبدالله المحاملي، بإسناده عن ابن عباس قال: لما أمر النبي ﷺ أن يقوم بعلي بن أبي طالب المقام الذي قام به فانطلق النبي ﷺ إلى مكة فقال: رأيت الناس حديثي عهد بكفر، بجاهلية، ومتى أفعل هذا به يقولوا صنع هذا يا ابن عمه، ثم مضى حتى قضى حجة الوداع، ثم رجع حتى إذا كان بغدير خم أنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية. فقام منادٍ فنادى «الصلاة جامعة» ثم قام وأخذ بيد علي ﷺ فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه<sup>(١)</sup>.

وروى الحافظ أبو بكر الفارسي الشيرازي في كتابه «ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين» عن ابن عباس إن الآية نزلت يوم غدير خم في علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup>.

## ٤- رواية جابر بن عبدالله الأنصاري

عن الحافظ الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بإسناده عن ابن عباس وجابر الأنصاري قالوا: أمر الله تعالى محمداً أن ينصب علياً للناس فيخبرهم بولايته، فتخوف النبي ﷺ أن يقولوا جابن ابن عمه وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية، فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خم<sup>(٣)</sup>.

(١) المفاهير، ص ٥٢، ص ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٢١٦، ح ٤.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١٨ / ح ١٠، نقلاً عن مجمع البيان: ح ٣ / ص ٢٢٢، نقلاً عن شواهد التنزيل لحاكم

الحسكاني: ح ١ / ص ٢٥٤.

## ٥- رواية البراء بن عازب

عن السيد علي الهمداني في «مودة القربى» عن البراء بن عازب قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فلما كان بغدير خم نودي بالصلاة جامعة. فجلس رسول الله ﷺ تحت شجرة وأخذ بيد علي وقال: ألت أولي بالمؤمنين من أنفسهم قالوا: بلى يا رسول الله فقال: ألا من أنا مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فلقبه عمر قال: هنيئاً لك يا علي بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وفيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (١).

## ٦- رواية أبي هريرة

عن شيخ الإسلام أبي إسحاق الحموي في كتابه فرائد السمطين عن مشايخه الثلاثة برهان الدين إبراهيم بن عمر الحسني والمدني والشيخ الإمام مجد الدين عبد الله بن محمود الموصللي، وبدر الدين محمد بن محمد بن أسعد البخاري، بأسنادهم عن أبي هريرة أنّ الآية نزلت في علي عليه السلام (٢).

## ٧- رواية ابن مسعود

عن القاضي الشوكاني في تفسيره «فتح القدير» عن ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كتنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - أَنْ عَلَيَّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ - وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٣).

(١) الغدير: ٢٢٠ / ج ١٧.

(٢) فرائد السمطين: ج ١ / ص ١٥٨.

(٣) فتح القدير: ج ٢ / ص ٦١.

روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام

وردت عند أتباع هذه المدرسة روايات كثيرة جداً في هذا الباب أيضاً ننقل فيما يلي بعضها:

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن زارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية وأبي الجارود جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: فأمر الله محمدًا عليه السلام أن يفسر لهم الولاية كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج. فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وإن يكذبوه. فضاق صدره وراجع ربه عز وجل فأوحى الله عز وجل إليه: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ فصدع بأمر الله - تعالى ذكره - فقام بولاية علي يوم غدير خم فنادى «الصلاة جامعة» وأمر الناس أن يبلغوا الشاهد الغائب <sup>(١)</sup>.

ومنها: ما رواه الكليني أيضاً عن مولانا أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ فنادى الناس فاجتمعوا وأمر بسمرات فقم شوكتهم ثم قال عليه السلام: «يا أيها الناس من وليكم وأولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: الله ورسوله. فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه - ثلاث مرات - <sup>(٢)</sup>.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج ١ / ١، ص ٣٤٩، وقد مضى تمام الحديث في الفصل السابق ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١ / ١، ص ٣٥٥، ح ٣.

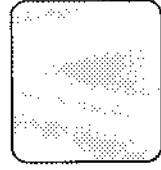
ومنها: ما رواه شيخنا الطبرسي في الاحتجاج مسنداً الى مولانا أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل، قال فيه: فمما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل عليه السلام على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاه والعصمة من الناس، فقال: يا محمد، إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - في علي - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾ وكان أوائلهم قريباً من الجحفة فأمره أن يرد من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ليقيم علياً للناس ويبليهم ما أنزل الله في علي عليه السلام، وأخبره بأن الله عز وجل قد عصمه من الناس، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عندما جاءت العصمة منادياً ينادي في الناس «الصلوة جامعة» - الى أن قال - : وأوذي ما أوحى إلي حذراً من أن لا أفعل فتحل لي منه قارعة لا يدفعها عني أحد وإن عظمت حيلته، لأنه قد أعلمني أنني إن لم أبلغ ما أنزل إلي فما بلغت رسالته، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافي الكريم، فأوحى الله إلي: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - يعني في الخلافة لعلي بن أبي طالب - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ (١).

ومنها: ما رواه العياشي في تفسيره بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر بن عبدالله قالوا: أمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقولوا: حابي ابن عمه وأن يطعنوا في ذلك، فأوحى الله إليه ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ فقام رسول الله صلى الله عليه وآله بولايته يوم غدير خم (٢).

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١ / ص ٦٩.

(٢) البحراني، هاشم، غاية المعرف: ص ٢٣٦ / ج ٤، نقلاً عن تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٥٧ - ٣٥٨.





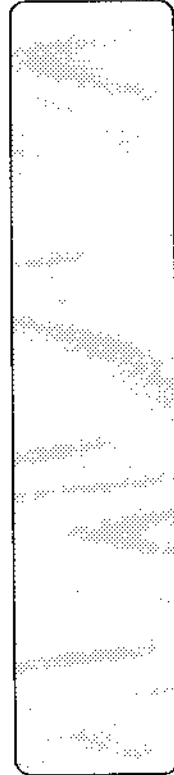
## الفصل السادس

### الإمامة إكمال الدين وإتمام النعمة

#### آية الإكمال

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئِنَّةُ وَالِدَمِّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا  
أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ  
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ  
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ  
ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ  
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ  
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ  
دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِسْمِ  
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(المائدة: ٣)





ومن الآيات التي عالجت موضوع الإمامة والولاية وأشارت إلى موقعها المتقدم في النظرية الإسلامية. آية إكمال الدين التي نخصص هذا الفصل لاستخلاص إيجاباتها وعطاءاتها.

والظاهرة التي تلاحظ في هذه الآية قبل كل شيء، أن الآية اشتملت على ثلاثة مقاطع: تناول المقطع الأول اللحوم المحرمة، وتناول المقطع الثاني الإشارة إلى بلوغ الدين مستوى الكمال، الذي يجعل الكفار في يأس شديد من أن ينالوه بشيء، والمقطع الثالث فيه ترخيص بتناول اللحوم المحرمة في حالة الاضطرار، أي أن المقطعين الأول والثالث مترابطان. والمقطع الوسط أجنبي عنهما.

وتوجد ثلاثة احتمالات لتفسير هذه الظاهرة: فإما أن نقول: إن الآية نزلت هكذا لحكمة معينة ومقاطعها الثلاثة هذه، وإما أن يكون النبي قد أمر بوضع المقطع الوسط بين المقطعين الأول والثالث، وأن زمن نزول ذلك المقطع مختلف عن زمن نزول الصدر والذيل، وإما أن يكون الأمر قد حصل أثناء الجمع القرآني.

ومهما يكن من أمر فإن البحث كل البحث يقع في المقطع الوسط الذي يعلن يأس الكفار من الإسلام الذي بلغ أوج كماله وارتقائه. وأن ذلك اليأس والكمال قد حصل في يوم معين واحد،

وأن السبب في يأس الكفار وإكمال الدين هو أمر واحد ﴿اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي



ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

فما هو ذلك اليوم؟ وما حقيقة ذلك السبب؟

يوجد احتمالات لتفسير كلمة «اليوم» الواردة في الآية مرتين:  
الاحتمال الأول:

أن يكون المقصود باليوم اليوم النوعي، كما يقول القائل:  
«كنت شايًا بالأمس وأصبحت اليوم شيخاً».

فإن اليوم والأمس في كلامه لا يدل على اليوم الفلكي الخاص المكوّن من «٢٤» ساعة، وإنما يدل على زمان نوعي قد يمتدّ لعدة سنوات لكنها تحسب بنظر المتكلم يوماً، فالآية جارية وفقاً لهذا المعنى. وهي تريد أن تقول للمؤمنين: لماذا تخافون الكفار وقد أصبحوا في يأس من أمرهم وأصبح دينكم في ذروة كماله بحيث لا يتأثر بالضغط والمؤامرات؟ وكأنّ المقصود باليوم هو المرحلة الزمنية التي يجتازها الدين، وقد أورد الرازي هذا الاحتمال في تفسيره<sup>(١)</sup>، لكنّه احتمال مردود لأسباب أربعة هي:

١- إنّ تفسير اليوم بالمرحلة أو البرهة وإن كان عرفياً إلاّ أنّه مبني على أنّ الاستعمال كان مجازياً، ولا يمكن المصير إلى التفسير بالاستعمال المجازي ما لم نفرغ أولاً من التفسير بالاستعمال الحقيقي ونثبت عدم إمكانه، لأنّ الاستعمال الحقيقي مقدم رتبة على الاستعمال المجازي، وستأتي الروايات المنقولة عن الفريقين بكون المقصود يوماً بعينه، وأنّ الاستعمال الحقيقي لا مجازي.

(١) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، ج ٦، ص ١٣٩.

٢- لو صحَّ هذا التفسير لكان نزول المقطع الوسط من الآية: ﴿اليوم يس... اليوم أكملت...﴾ في فترة فتح مكة أجدر وأولى من نزوله في غيرها.  
 ٣- إذا صحَّ هذا التفسير فلازمه أن يكون الإكمال المقصود في الآية إكمال الشريعة. وحينئذ لا بد من إثبات عدم نزول حكم تشريعي بعده. مع أنه قد وردت روايات كثيرة تدل على نزول أحكام بعد ذلك اليوم كآية الكلاله وآية الربا ونحوهما.

فالإكمال التشريعي أمر تأباه الروايات الكثيرة من قبل الفريقين. ولذا اختار الرازي في تفسيره<sup>(١)</sup> ما قاله القفال من أن المقصود بالإكمال هو أن الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كانت كافية في ذلك الوقت، بينما أصبحت الشريعة الإسلامية في آخر البعثة النبوية كاملة إلى يوم القيامة، ولكن هذا القول لا يفهم له معنى تام، فقله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾ ناظر إلى المسلمين دون سواهم وإلى الشريعة الإسلامية دون سواها، ولا بد أنها كانت قبل اليوم المذكور ناقصة وأصبحت بعده كاملة تامة، فلا محصل جديد من هذا القول.

٤- إنَّ هذا التفسير يلغي الترابط بين ﴿اليوم يس...﴾ وبين ﴿اليوم أكملت لكم...﴾ مع أن الترابط بينهما موجود محسوس.

الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المقصود باليوم هو اليوم الفلكي المعروف المكوّن من «٢٤» ساعة، وحينئذ لا بد أن نبحت عن يوم في الإسلام حصل فيه أمران متلازمان، أولهما يأس الكفار من سقوط الدين الإسلامي أو النيل منه، وثانيهما إكمال الدين وإتمام النعمة.

(١) الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٦/ ص ١٤٠

من الممكن أن يقال: إنه يوم فتح مكة. لكن فتح مكة يتناسب مع الأمر الأول دون الثاني، وهكذا يتعين ما قالتها مدرسته أهل البيت من أن اليوم المقصود هو يوم الغدير، الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة. الذي حصلت فيه ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وتم نصبه خليفة على المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله. ذلك أن الكفار وهم في حربهم المستمرة مع الرسول صلى الله عليه وآله، قد حاولوا المحاولات ثلث المحاولات ونفذوا المؤامرات ثلث الأخرى للإطاحة بالإسلام والمسلمين، لكنها جميعاً باءت بالفشل الذريع فظل أصحابها يترصون الدوائر بالنبي صلى الله عليه وآله وأصحابه و ينتظرون الفرص ويدبرون ما يستطيعونه من الخطط. وعلقوا آخر آمالهم على وفاة النبي صلى الله عليه وآله، حيث صورت لهم أوهامهم انتهاء الرسالة الإسلامية بوفاة رائدها ورحيله عن هذه الدنيا، على غرار ما يحصل لبعض الثورات الاجتماعية والحركات السياسية، التي ينطبق عليها التعبير القرآني الشريف ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾<sup>(١)</sup> أي لا مستقبل له ولا مصير.

هكذا تصور الأعداء الأمر، لكنهم فوجئوا بالقيادة الإسلامية النبوية تعلن عن القيادة التي ستخلفها وستضمن استمرار الرسالة ومصير الأمة بعدها، وتكشف عن أن انتهاء عهد النبوة لا يعني انتهاء الرسالة وإنما يعني ظهور مرحلة جديدة هي مرحلة الإمامة التي ستواصل المسؤولية بعد النبي صلى الله عليه وآله، الأمر الذي أسقط ما في أيدي الأعداء وألقى بهم في وهدة اليأس من أن يقوموا بشيء مؤثر في واقع الرسالة، ولاشك أن هذا الإجراء التاريخي يمثل ارتقاءً نوعياً رفيعاً في واقع الرسالة الإسلامية. بحيث لا يمكن لنا تصور الكمال فيها

(١) الكوثر: ٣

بدونه. وأي كمال لرسالة خاتمة لا تضمن مستقبلها ومصيرها بإجراء أكيد وخطوة حتمية؟ وأي خطوة أو إجراء أضمن لمستقبل الإسلام من الإعلان عن خط الإمامة كمرحلة جديدة في سير الرسالة، وأن هذا الخط سيأخذ على عاتقه مسؤولية تجدير وترسيخ التجربة النبوية وصد الأخطار المحدقة بها؟ وهكذا تكون الإمامة السبب المشترك لأمرين متلازمين هما يأس الكفار وإكمال الدين، وهو ما حصل يوم الغدير.

وواضح أن هذا التفسير لا يرد عليه أي اشكال، بل هو يتطابق مع العقل والنقل معاً، ويكفي لإثبات صحة هذا التفسير استفاضة الروايات الدالة عليه من طرق الشيعة، بل وتوفر روايات دالة عليه من طرق السنة أيضاً، ويمكن إثباته أيضاً بعدم وجود تفسير ناهض يكون بديلاً عنه، فقد ورد من طرق السنة أن اليوم المقصود هو يوم عرفة من حجة الوداع بروايات تنتهي إلى الإمام علي عليه السلام ومعاًوية وسمرة وعمر بن الخطاب، ونقل صاحب «الدر المنثور» وصاحب «روح البيان» روايتين من الروايات الدالة على أن الآية نازلة في الغدير، لكنهما وصفا الروايتين بالضعف السندي وهما تنتهيان إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري<sup>(١)</sup>.

### مناقشات في ضوء العقل والواقع التاريخي

ولكي تثبت صحة التفسير الشيعي الغديري لآية الإكمال، لابد لنا من مناقشة الكلام السابق عن ضعف الروايات الدالة عليه، وما قيل من أن المراد

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور: ج ٢ / ص ٤٥٧-٤٥٨، ولم أذكر غيرها في تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي، انظر ج ٢ / ص ٣٤٢-٣٤٥.

باليوم هو يوم عرفة.

والمناقشات هي:

١- إن الروايات الدالة على أن المراد باليوم هو يوم الغدير لا تنحصر سنداً في من ذكره مؤلفنا «الدر المنثور» و«الروح البيان»، بإضافة إلى أبي سعيد الخدري وأبي هريرة المذكورين رويت هذه الروايات عن زيد بن أرقم وجابر بن عبد الله الأنصاري وابن عباس ومجاهد والإمامين الباقر والصادق عليه السلام بطرق عديدة.

٢- إن الروايات المنتهية إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري صحيحة سنداً على موازين المدرسة السننية في الحديث. وقد أثبت العلامة الأميني ذلك.<sup>(١)</sup>

٣- إن الروايات الواردة في نزول الآية يوم عرفة من حجة الوداع ورويت بطرق عديدة كلها ضعيفة السند غير ما روى منها عن عمر، كما ذكر ذلك الاستاذ العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان<sup>(٢)</sup>.

٤- إن الروايات الدالة على أن آية الإكمال نازلة في قضية الغدير مؤيدة بالروايات الواردة في تفسير آية ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك...﴾ كما مر سابقاً، ومؤيدة كذلك بالروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ حيث تتحد هذه الآيات بكونها قد نزلت في قضية الغدير.

٥- وعلى فرض سلامة الاحتمالات غير الشيعية في تفسير آية الإكمال

(١) الأميني، عبد الحسين، الغدير، ج ١ / ص ٢٣٦، ص ٤٠١ - ٤٠٥.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ٥ / ص ١٩٥.

من كل إشكال سندي أو تاريخي، فإن بالإمكان القول بأن هذه الاحتمالات مخالفة للكتاب، فيجب طرحها والأخذ بالروايات المؤيدة لتفسير الشيعي بوصفه مؤيداً من قبل الكتاب العزيز كآية التبليغ وآية ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾<sup>(١)</sup>.

٦- إن ما احتمله الفخر الرازي من كون المقصود باليوم هو اليوم النوعي قد ورد النقض عليه سابقاً، ويردّ عليه - إضافة لما سبق - ما روي عن عمر بن الخطاب من أنه قال له بعض أهل الكتاب: إن في القرآن آية لو نزلت علينا مثلها لاتخذنا اليوم عيداً، وهي قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فقال: «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة»<sup>(٢)</sup>.

ذلك أن هذا الخبر صريح في أن المراد هو يوم معين مشخص.

٧- ولو أغمضنا النظر عن الإشكالات السابقة، وقمنا بصحة الروايات الدالة على نزول الآية في غير يوم الغدير، فمن اللازم حينئذ ملاحظة قواعد التعارض بين الأخبار. وليس من النهج العلمي الموضوعي التزام أحد الجانبين المتعارضين دون الآخر ما لم يكن ذلك ناتجاً عن تطبيق تلك القواعد.

٨- وأخيراً يمكن أن يقال بإمكان الجمع بين الطائفتين من الروايات وذلك بوجهين:

الوجه الأول:

ما قاله سبط ابن الجوزي من نزول الآية مرتين<sup>(٣)</sup>، وليس هذا بدعاً

(١) اسمعارج : ١.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير: ج ٢ / ص ١٢.

(٣) سبط بن الجوزي، تذكرة الخواص: ص ٣٥.

في الآيات. وكم له من نظير؟ وقد جمع العلامة الأميني في الآيات النازلة مرتين لدى بحثه في آية ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾<sup>(١)</sup>.

### الوجه الثاني:

ما قاله العلامة الأميني وسدده العلامة الطباطبائي من احتمال الاختلاف بين يوم النزول ويوم التلاوة<sup>(٢)</sup>، على أساس أن النبي ﷺ كان يتقي الناس في إظهار أمر الولاية خشية أن لا يتلقوه فيختل أمر الدعوة. أوتقع الفرقة والاختلاف في الأمة الإسلامية، فكان لا يزال يؤخره من يوم إلى يوم منتظراً سنوح الفرصة المناسبة حتى نزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾، وبهذا يكون من الجائز نزول معظم السورة، ومنه قوله تعالى: ﴿اليوم يسئ الذين كفروا﴾ إلى قوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ في يوم عرفة، إلا أن النبي ﷺ أخر بيان الولاية إلى يوم غدير خم.

وعليه. فيرتفع التعارض بين الطائفتين من الروايات: بأن يكون ما دل على نزول الآية يوم عرفة ناظراً إلى يوم النزول، وما دل على أن المراد هو يوم غدير خم ناظراً إلى يوم التلاوة والتبنيغ، وتكون الآية منطبقة على أمر الولاية وحاكية عنه على كل حال.

وحقيقة الأمر أننا إذا تدبرنا قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ والروايات الواردة في سبب نزوله، وتأملنا قول تعالى: ﴿اليوم يسئ الذين كفروا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ والروايات الواردة في سبب

(١) الأميني، عروة الغدير، ج ١ / ص ٢٥٥-٢٥٧.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ٦ / ص ٤٨.

نزوله والتعارض الذي يتراءى فيها، ولاحظنا أيضا الروايات الواردة في قضية غدِير خَم الكُبْرَى، وركزنا على الأوضاع الداخلية للمجتمع الإسلامي آنذاك. أي في أواخر عهد الرسول الأعظم ﷺ. ودور الكفّار ومؤامراتهم وحقدهم الذي تعبّر عنه الآية الشريفة على لسانهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابِ الْيَوْمِ﴾ (١).

حيث نجدهم يشككون في حقانية الولاية وربانيتها. إلى حد أنهم يفضلون نزول العذاب عليهم من التسليم لعليّ ﷺ بالولاية. وهو منتهى العناد الذي تعبّر عنه آية أخرى هي ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ﴾ (٢) إذا لاحظنا كل هذه المؤشرات وتدبرناها بدقة وجدنا أن أمر الولاية كان قد نزل قبل يوم الغدير، وهذا ما يصلح شاهدا للجمع بين الطائفتين من الروايات، الطائفة القائلة بنزول آية الإكمال في يوم عرفة من حجة الوداع، والطائفة القائلة بنزولها في يوم الغدير.

### روايات المدرستين

أما الروايات التي وردت عن الفريقين والتي تفسر آية الإكمال بقضية الغدير وولاية عليّ بن أبي طالب ﷺ، فمن طرق السنة ما رواه إبراهيم بن محمد الحمويّ بسنده إلى أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري: إن النبي ﷺ يوم دعا الناس إلى غدِير خَم، أمر الناس بما كان تحت الشجرة من الشوك فقم، وذلك يوم الخميس، ثم دعا الناس إلى عليّ ﷺ، فأخذ بضبعه فرفعها حتى رأى الناس إلى بياض إبطه، ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم

(١) الأمان: ٣٢.

(٢) المعراج: ١.



وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالي والولاية لعليّ عليه السلام. ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله (١).

وقريب من ذلك رواية أخرى رواها أبو نعيم الاصبهاني في كتابه «ما نزل من القرآن في علي»، وأبو سعد السجستاني في كتاب «الولاية»، والحاكم الحسكاني. وابن عساكر، وموفق بن أحمد الخوارزمي في المناقب وغيرهم (٢). ومنها: ما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: من صام يوم ثمان عشر من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدیر خم لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألت أولى بالمؤمنين. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه. فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، فانزل الله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (٣).

ومنها: ما عن جابر الانصاري وأبي سعيد الخدري قالوا: لما نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية، قال النبي ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الرب برسالي وولاية علي بن أبي طالب بعدي (٤).

وأما ما ورد عن الشيعة فروايات كثيرة، منها ما عن الصادقين عليه السلام: أنه أنزل

(١) البحراني، هاشم، غايه المرام، ص ٣٣٧ / ج ٢، نفاذ عن الحموي في فرائد المسطين: ج ١ / ص ٧٣.

(٢) الأمامي، عبد الحسين، الغدير: ج ١ / ص ٢١٨-٢٣٤، انظر شواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ٢٠٠-٢٠٨، والمناقب للخوارزمي: ص ٨٠.

(٣) الغدير: ج ١ ص ٢١٢-٢١٣.

(٤) المصدر السابق / ص ٢١٤.

الله بعد أن نصب النبي ﷺ علياً ﷺ علماً للأمام يوم غدیر خم عند منصرفه من حجة الوداع. قالوا: وهي آخر فريضة أنزلها الله لم ينزل بعدها فريضة<sup>(١)</sup>. وقريب منه سائر ما رواه البحراني في هذا الباب عن علي بن إبراهيم القمي<sup>(٢)</sup> والطبرسي<sup>(٣)</sup> والعياشي<sup>(٤)</sup> في تفاسيرهم، والطوسي في أماليه<sup>(٥)</sup> والطبرسي في الاحتجاج<sup>(٦)</sup> وابن بابويه في أماليه<sup>(٧)</sup> وغيرهم.

ومنها: ما رواه في «الخصائص» عن الصادق عليه السلام قال: نزلت هذه الآية - يعني آية التبليغ - يوم الغدير. وفيه نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ قال: وقال الصادق عليه السلام: أي اليوم أكملت لكم دينكم بإقامة حافظة، وأتممت عليكم نعمتي أي بولايتنا، ورضيت لكم الإسلام ديناً أي تسليم النفس لأمرنا<sup>(٨)</sup>.

ومنها: ما رواه في «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾. قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: لا أنزل عليكم بعد هذه فريضة، قد أكملت لكم الفرائض<sup>(٩)</sup>.

وقد مرّ تمام الحديث في ذيل البحث في آية الولاية.

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٣٨ / ج ٤.

(٢) قمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١ / ص ٤٦٩.

(٣) طبرسي، أفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٣ / ص ١٥٩.

(٤) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٥) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج ١ / ص ٢٠٨.

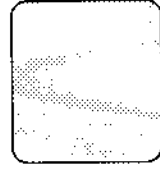
(٦) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ١ / ص ٦٩ - ٨٤.

(٧) القمي، محمد بن علي، الأمالي: ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٨) الأميني، عبدالحسين، الغدير: ج ١ / ص ٢١٤.

(٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٣٤٩ / ج ٤.





## الفصل السابع

### الإمامة لمن عنده علم الكتاب

#### آية علم الكتاب

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ  
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »

(الرعد: ٤٣)





وآية علم الكتاب هي الأخرى عالجت جانباً من موضوع الإمامة، وأشارت إلى بُعد من أبعادها، فهذه الآية المباركة جعلت خاتمة لسورة الرعد المكيّة. والمعروف عن السور المكيّة أنها تتعرض إلى شبهات الجاحدين والمعاندين، الذين يكابرون في الحقّ ويتعامون عن الآيات الواضحة ويستخدمون شتى الأساليب لتبرير إنكارهم وعنادهم، منها أسلوب طرح المطالب والافتراضات التي يتصوّرونها تعجيزية، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾<sup>(٢)</sup>.

ومن الواضح أنّ طرحهم هذه الافتراضات لم يكن ناشئاً من رغبة حقيقة في الوصول إلى الحقّ، لأنّ الحجج والآيات والأدلة التي أقامها النبي ﷺ على حقانية نبوته لم تكن قليلة، بل كانت كثيرة وكافية، وإنّما كانوا يهدفون من وراء ذلك توجيه ضغوط نفسية على النبي ﷺ وإثارة التشكيك والاستهزاء بكلامه، وحتى لو كانت تلك الافتراضات تنفذ لهم فسيفسرونها بالسحر وأمثال ذلك مما تكرر منهم اتهم النبي ﷺ به.

(١) الإسراء: ٩٠ و٩٣.

(٢) الرعد: ٧.

وفي مجال الردّ عليهم اتخذ القرآن عدّة أساليب، منها ثلاثة أساليب معروفة هي:

الأول: تلقين الرسول ﷺ بالردّ عليهم بأن ﴿الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾<sup>(١)</sup>. متعجباً من موقفهم المعاند المكابر بعد كل هذه الآيات الساطعة، التي قدّمها الرسول ﷺ لهم وكفى بالقرآن وحده آية قاطعة لا تقبل الجدل والردّ، فإذا كانوا يجحدون بكلّ هذه الأدلّة فبأيّ دليل بعدها يؤمنون!!

وواضح أنّ هذا الجواب والأسلوب في الردّ يتضمّن نوعاً من الاستهانة بهم وبشأنهم، فكأنّما النبي ﷺ يقول لهم: إنكم لستم بالشأن الذي تكون هدايتكم نافعة لي أو ضلالتكم ضارة بي، وإنّ موقفكم هذا غرور وعناد وليس فيه من التعقل شيء.

الثاني: تلقين الرسول ﷺ في أن يقول في جواب اقتراحاتهم تلك:

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾<sup>(٢)</sup>.

وهو الآخر أسلوب ينطوي على تثبيت لقلب النبي ﷺ ورفع لمعنوياته واستهانة بشأن الكفار وعنادهم، فإذا كان الله تعالى هو الشهيد الشاهد على حقّانية النبي ﷺ وصدق دعوته، فما الذي يضرّه من جحود الجاحدين وإنكار المكابرين؟ وعلى غرار ذلك جاء قول الفرزدق في جواب هشام بن عبد الملك عندما تظاهر بتجاهل شخصية الإمام زين العابدين عليه السلام في قصيدته الميمية

(١) الرعد: ٢٧.

(٢) الإسراء: ٩٦.





المعروفة التي منها قوله:

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم الثالث: تلقين الرسول ﷺ أن يطلب منهم - تبيكيتاً لهم - أن يتدبروا آيات الله الماثلة في كل ذرة من ذرات هذا الكون الفسيح، ويفكروا في نعمه الغامرة للمخلوقات، ثم يتحدثهم بأن يأتوا بمثل معجزته الخالدة، حيث يقول تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾<sup>(١)</sup>.

وعندما ننظر في آية علم الكتاب نجدها تستخدم الأسلوب الثاني في مواجهة جحود الجاحدين وإنكار المكابرين، وهو أسلوب تسلية النبي وتشديد عزيمته والاستهانة بخصوصه.

فلقد كان النبي ﷺ بحاجة ماسة إلى زخم سماوي متواصل يتعبأ به في مواجهة تحديات الخصوم التي كانت تملأ نفسه ضيقاً وألماً وأسفاً، رغم ما كان يتصف به من سعة الصدر والاستعداد المثالي لتحمل المشاق والمصاعب، فقد كانوا ينسبون إليه السحر والجنون محاولة منهم القت في عضده واضعاف عزم التابعين له، ثم راحوا يكذبونه ويستخفون به محاولين ممارسة الضغط النفسي عليه وإيذائه لعله ينهار غمماً وحزناً، ولذا كثيراً ما نجد القرآن الكريم يحاول تسلية النبي ﷺ ورفع الحزن عنه من هذه الجهة، قال تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك ألا

(١) الإسراء: ٨٨

(٢) الكهف: ٦

يكونوا مؤمنين ﴿ (١) .

وقال تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (٢) .

وهذه الآيات الثلاث تكشف عن النفس الكبيرة التي كان يتحلّى بها الرسول الأعظم ﷺ فإنه لم يكن يتألم من تكذيبهم إياه وايدانهم له، وإنما كان ألمه النفسي الشديد بسبب كونهم يحرمون أنفسهم من نور الهداية الإلهية. ولعدم استفادتهم من فيض النبوة وعطاء الرسالة. فكان ألمه لهم ومن أجلهم، فتأتية التسلية الربانية السماوية لتقول له: بأنك قد أذيت ما عليك، وأن هؤلاء لا يستحقون هذه الحسرات التي تؤلم نفسك بها عليهم، وأن الله سبحانه كفيلاً بنصر دينه، وأن تكذيب هؤلاء لك وعدم إيمانهم بنبوتك لن يؤثر بشيء في مصير الدين وحركة الرسالة، وإلى جانب ذلك كان القرآن يزيده عزماً على عزمه إصراراً على إصراره. عندما يقص عليه أنباء الرسل من قبله، وما حصل لهم من التكذيب وما جاءهم من النصر. قال تعالى: ﴿ قد علم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ﴿ (٣) .

وفي مقابل تكذيبهم كان القرآن الكريم يعطيهم الشهادة تلو الشهادة ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ (٤) وهي شهادة عظيمة لا تعدلها شهادة، ولا يضر معها جحود هؤلاء، بل جحود أهل الأرض أجمعين، قال تعالى: ﴿ إن تكفروا أنتم ومن

(١) الشعراء: ٣.

(٢) فاطر: ٨.

(٣) الأنعام: ٣٣، ٣٤.

(٤) يس: ٣.

في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴿<sup>(١)</sup>﴾.

وآية علم الكتاب التي نحن بصددھا من هذا النوع. فهي تنطوي على شهادتين على نبوة الرسول، شهادة الله سبحانه ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ <sup>(٢)</sup> وشهادة من عنده علم الكتاب ﴿..ومن عنده علم الكتاب﴾ وكفى الشهادة الثانية فضلاً وكرامة أنها جاءت مقترنة بشهادة الله.

والملاحظ أن الآية لم تبيّن اسم الشهيد الثاني، وإنما أشارت إلى وصفه بـ ﴿من عنده علم الكتاب﴾ ولعلّها تريد أن تشير من خلال ذلك إلى أن الفضل والكرامة والملاك ليست في الاسم والعنوان، وإنما في الوصف والحقيقة التي ينطوي عليها ذلك الشهيد، ألا وهي (علم الكتاب).

وقد كشف القرآن الكريم في موضع آخر عن منزلة ومكانة هذا العلم. وهو قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ <sup>(٣)</sup>.

فتحدّث عن عمل عجيب خارق للعادة، وهو جلب عرش بلقيس من سبأ خلال أقل من ارتداد الطرف، قام به من ﴿عنده علم من الكتاب﴾، فما أجل هذا العلم الذي يجعل الحامل للبعض منه بهذه الدرجة من الكرامة والمنزلة عند الله! وكيف ستكون درجة ﴿من عنده علم الكتاب﴾ الذي ذكرته الآية الشريفة؟ ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ <sup>(٤)</sup>.

(١) إبراهيم: ٨

(٢) الرعد: ٤٣

(٣) النمل: ٤١

(٤) الحديد: ٢١

## من هو الذي عنده علم الكتاب؟

وهنا نتساءل عن الشخص المقصود بهذه الصفة؟ ومن هو الذي كان عنده علم الكتاب؟

يوجد اتجاهان في تفسير هذه الصفة، هما:  
الأول:

يفسرها بعدماء أهل الكتاب مثل: عبدالله بن سلام، وكأن الآية تجعل شهادة هؤلاء دليلاً على صحة الرسالة الإسلامية، وحينئذ تكون على غرار قوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾<sup>(٢)</sup>.

ويرد على هذا التفسير: أن الآية وسواء أكانت نازلة في مكة أو المدينة فإن تفسيرها بأمثال عبدالله بن سلام خلاف الظاهر منها، فإن الآية مشعرة بنوع من المنزلة لصاحب هذه الصفة. وهذا الإشعار مستفاد من الاقتران بشهادة الله. وهو يتأكد عندما نجمع الآية مع آية ﴿وقال الذي عنده علم من الكتاب﴾، ولعل هذا التفسير نشأ من الخلط بين مفهوم ﴿من عنده علم الكتاب﴾ ومفهوم ﴿أهل الكتاب﴾. وهما مفهومان مختلفان لا اتحاد بينهما، لاختلاف المقصود بالكتاب في كل منهما، فالكتاب المقصود في الآية هو القرآن، وابن سلام وأمثاله ليس عندهم علم القرآن، وسبب هذا الخلط ابتعاد أصحابه عن عدل الكتاب وهم

(١) الأحقاف: ١٠.

(٢) الشعراء: ١٧٧.

أهل البيت عليهم السلام الحاؤون على علم الكتاب والقادرون على تفسيره - دون سواهم - الذين أمرنا بالرجوع إليهم في حديث الثقلين المتواتر لدى الفريقين «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يرثي علي الحوض»<sup>(١)</sup>.

الثاني:

تفسيرها بالإمام علي عليه السلام والأئمة من بعده، وهو التفسير الوارد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحينئذ تكون صفة علم الكتاب من صفات الإمامة وملاكاتها المطلوبة في الإمام، وقد وردت روايات كثيرة تؤكد على هذا التفسير، ومن طرق الفريقين.

فمن طرق السنة ما رواه الفقيه ابن المغازلي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن عطاء، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام جالساً إذ مرّ عليه ابن عبد الله بن سلام، قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم من الكتاب، قال: لا، ولكن صاحبكم علي بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾، ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ و﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما من طرقنا فروايات متظافرة:

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني محمد بن يعقوب في الصحيح عن بريد بن معاوية، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾؟ قال: إيانا عنى، وعليّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص ١٣٤.

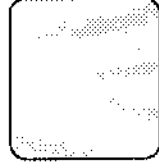
(٢) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص ٣١٤، وذكره صاحب غاية المرام في ص ٢٥٧ نقلاً عن ابن المغازلي.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٢٨٧ / ح ٦.

ومنها: ما رواه أيضاً مسنداً عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله عليه السلام إذ خرج إلينا وهو مغضب. فلما أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أننا نعلم الغيب! ما يعلم الغيب إلا الله عزّ وجلّ. لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني فما عدت في أي بيوت الدار هي. قال سدير: فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر. وقتلناه، جعلنا فداك، سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك. ونحن نعلم أنك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب.

قال: فقال: يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: فهل وجدت في ما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾؟ قال: قلت: جعلت فداك قد قرأتها. قال: فهل عرفت الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: أخبرني به؟ قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب؟! قال: قلت: جعلت فداك ما أقلّ هذا، فقال: يا سدير ما أكثر هذا أن ينسب الله عزّ وجلّ إلى العلم الذي أخبرك به، يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾؟ قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأوماً بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا<sup>(١)</sup>.

(١) الكافي، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٣١٥ / ح ٣.



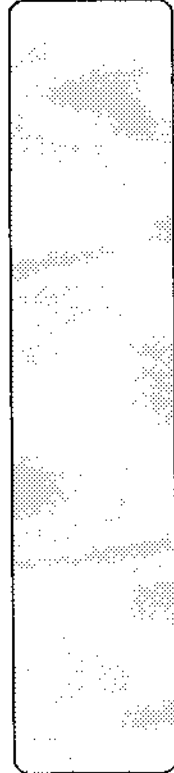
## الفصل الثامن

### الإمامة الشاهدة

#### آية البيّنة

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ  
وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ  
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ  
مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ  
وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(هود: ١٧)







ومن الآيات التي تناولت قضية الإمامة وأشارت إلى خصائصها آية البيّنة الواردة في سورة هود، ومطلع الآية استفهام استنكاري ذكر فيه المبتدأ؟ وحذف الخبر، والمعنى: أنه ليس من كان على بيّنة كغيره ممن ليس كذلك، فهي نظير قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ (١).

والبيّنة: هي الدلالة الواضحة، كما في المفردات للراغب الاصفهاني (٢)، وقد كثر استعمالها فيما يتبين به غيره كالحجّة والدليل، بسبب أن الأمور الواضحة قد تكثر سبباً لوضوح غيرها مما هو متعلق بها، ولذا أطلق القرآن الكريم البيّنة على الآيات والبراهين ومعجزات الأنبياء، لكونها الدليل الفاصل بين الحق والباطل، كقوله تعالى: ﴿قد جاءكم بيّنة من ربكم هذه ناقية الله لكم آية﴾ (٣).

وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فقميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ (٤).

وقوله تعالى حكاية عن قوم هود عليهم السلام: ﴿قالوا يا هود ما جئنا بيّنة وما نحن بتاركي

(١) محمد: ١٤.

(٢) الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص ١٨.

(٣) الأعراف: ٧٣.

(٤) هود: ٢٨.

ألهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴿ (١) .

وقوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزدونني غير تخسير ﴾ (٢) وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ قد جئكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ (٣) وغير ذلك من الموارد القرآنية.

والبينة قد تكون عقلية ينتزعاها الإنسان من عقله، وقد تكون آية ربانية. والظاهر أنها في المورد الذي نحن فيه إلهية، لأن وصف البينة بأنها «من ربه» يتناسب مع كونها ربانية لاعقلية، والمراد بها هو القرآن الكريم، المعجزة الإلهية الخالدة، والآية الربانية الساطعة، وقد تكرر في القرآن الكريم إطلاق البينة وإرادة الكتاب العزيز منها عدة مرات، منها قوله تعالى: ﴿ قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿ أو تقولوا لو آتانا نزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ﴾ (٥).

ومن هنا يظهر أن المراد باسم الموصول المذكور في مطلع الآية: ﴿ أفمن كان على بينة ﴾ هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لأنه هو صاحب البينة المذكورة، وبإيضاح

(١) هود: ٥٣.

(٢) هود: ٦٣.

(٣) الأعراف: ١٠٥.

(٤) الأنعام: ٥٧.

(٥) الانعام: ١٥٧.

ذلك تصبح المعاني الأخرى للآية واضحة أيضاً، فالضميران في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يرجعان إلى اسم الموصول «من» أي إلى الرسول ﷺ مع احتمال أن يكون مرجع الضمير في «ينوّه» هو البيّنة.

والفعل «يتلو» مأخوذ من «اتلوا» لا «اتلوا»، وحينئذ يكون معنى الآية: من كان على بيّنة هي القرآن، ويتبعه بلا فصل شاهد منه أي من نفس النبي ﷺ، وفي هذا تشریف بيان لمنزلة الشاهد من جهتين: جهة موالاة الشاهد للنبي بحيث يكون قالياً له، وجهة التبعض وكون الشاهد من نفس النبي ﷺ ومثل هذه المنزلة لا يمكن أن تنطبق إلا على أوحدي من أمة الرسول ﷺ وصحابته، وليس بإمكان أحد أن يفسر الشاهد بأمثال عبد الله بن سلام.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي أولئك المؤمنون. وقد يكون المراد المؤمنين والشاهد وصاحب البيّنة، فتكون الآية بمثابة قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾<sup>(١)</sup>.

وقد تكون الجملة في مقام تسنية النبي ﷺ عن طريق إخباره بأن أهل الكتاب يؤمنون به، نظير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا تُلَى

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) العنكبوت: ٤٧.

(٣) الرعد: ٣٦.

عليهم قالوا أمانا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي في شك منه، والمخاطب بهذا الخطاب هو النبي ﷺ. إلا أنه على نحو «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فالمخاطب وإن كان هو النبي ﷺ إلا أن المقصود بالخطاب هو سائر الناس، لعدم إمكانية نسبة الشك إلى النبي ﷺ. وقد روى عبدالله بن بكير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نزل القرآن بإياك أعني واسمعي يا جارة» (٢).

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦).

معطيات الآية الكريمة:

ورغم البعد الظاهري عن موضوع الإمامة إلا أننا إذا تدبرنا الآية جيداً وجدناها تنطوي على دلالات بالغة الأهمية بالنسبة إلى هذا الموضوع. وهي:

(١) القصص: ٥٢-٥٣.

(٢) الفيض الكاشاني، محمد، محسن، تفسير الصادق: ج ١ / ص ١٨ المقدمة الرابعة.

(٣) الأنعام: ١١٤.

(٤) يونس: ٩٤.

(٥) البقرة: ١٤٧.

(٦) آل عمران: ٦٠.

١- إن وصف الشاهد بأنه من صاحب البيئنة - أي من الرسول الأكرم ﷺ كما هو البعض جزء من الكل - ينطبق على أهل البيت ﷺ المذكورين في آية انتظهير، وهذا يتساق مع ما جرى عليه خط النبوات من جعل النبوة والإمامة في نطاق نسبي متقارب.

٢- إن هذا الشاهد يأتي تلو الرسول، بل سيأتي في معطيات آية المباهلة أنه بمنزلة نفس الرسول ﷺ، وقد مر في آية علم الكتاب أن شهادة هذا الشاهد تساق شهادة الله سبحانه.

كل ذلك على فرض أن يكون الضمير في «يتلوه» راجعاً إلى صاحب البيئنة أي إلى الرسول ﷺ. أمّا لو كان الضمير راجعاً إلى البيئنة نفسها - أي إلى القرآن - فحينئذ يكون مضمون الآية مطابقاً لمضمون حديث الثقلين الذي جعل العترة عدلاً لكتاب الله ومفسرة له.

٣- والشهادة هنا لا بد أن تكون شهادة التأديبة الناشئة عن مشاهدة سابقة لموضوع معين وحضور في الواقعة التي يراد انشهادة لها. أي أن أداء الشهادة يفترض مسبقاً تحتمل الشهادة، واختصاص الشهادة بفرد معين له تلك الخصوصيات «ويتلوه شاهد منه» يدل على أن التحتمل المقصود ليس ناشئاً عن مجرد الإيمان بالنبوة، لأن هذا المعنى يشترك فيه الكثير من أتباع الرسول ﷺ. فلا بد أن يكون التحتمل المقصود هو الشهود لحقيقة النبوة ورؤية جبرئيل حامل الوحي الذي كان يهبط على النبي ﷺ. وهو ما يمكن أن ينفرد به هذا الشاهد عن غيره، ويصحح نسبة تلك الخصائص الرفيعة له.

وهذا المعطى الذي توصلنا إليه عبر الاستنتاج. يؤيده قول الرسول ﷺ

للإمام علي عليه السلام «انك تسمع ما أسمع وترى ما أرى» كما جاء في الخطبة القاصعة الواردة في نهج البلاغة<sup>(١)</sup>، وما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان علي عليه السلام يرى مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت.

وقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا أنني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة»<sup>(٢)</sup>.

٤- إن الغرض من الشهادة هو إزالة الريب والشك عن المدعى. وهذا ما يتطلب الثقة بنزاهة وضبط الشاهد لموضوع شهادته. ودرجة الثقة تتناسب تناسباً طردياً مع أهمية موضوع الشهادة. فكلما كان ذلك الموضوع مهماً كلما كانت الوثيقة المطلوبة في الشاهد أعلى حتى يصل الأمر إلى أعظم درجات الأهمية وهو النبوة والرسالة. فتكون الوثيقة المطلوبة بنزاهة وضبط الشاهد أقصى ما يمكن. وليست تلك الدرجة إلا العصمة عن الخطأ والسهو والنسيان، وهكذا تثبت عصمة الشاهد.

٥- إذا جمعنا بين آية البينة وآية علم الكتاب. وجدنا أن الشاهد المذكور في الأولى هو نفس من عنده علم الكتاب المذكور في الثانية.

هذه خلاصة المعطيات التي يمكن استفادتها من الآية، وهي بلا شك ذات علاقة وطيدة بنظرية الإمامة في القرآن الكريم لأنطباقها على أئمة أهل البيت عليهم السلام. وكونها تتحدث عن أبعاد وخصوصيات الإمامة فيهم.

(١) ميثم بن علي، شرح ابن ميثم، ج ٤ / ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٨.

## الشاهد في روايات المدرستين

وتنطبق على هذا المعنى الذي توصلنا إليه روايات كثيرة وردت من طرق الفريقين، ودلت على أن الشاهد المقصود في الآية هو الإمام علي عليه السلام. فمما روي عن السنة، ما رواه موفق بن أحمد الخوارزمي، قال: كتب عمرو بن سعد بن أبي العاص إلى معاوية في ردّ مكاتبتة إليه في طلبه الإعانة على قتال أمير المؤمنين عليه السلام، كتب إليه:

«من عمرو بن سعد بن أبي العاص صاحب رسول الله ﷺ إلى معاوية بن أبي سفيان، وقد علمت يا معاوية ما أنزل الله تعالى في كتابه فيه من الآيات المتلوات في فضائله التي لا يشركه فيها أحد، كقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ و﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ سلمك سلمي وحربك حربي، وتكون أخي وولي في الدنيا والآخرة، يا أبا الحسن من أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني أدخله الله النار، وكتابك يا معاوية الذي هذا جوابه ليس مما ينخدع به من له عقل أو دين، والسلام»<sup>(١)</sup>.

ومنها: ما رواه الخوارزمي أيضاً قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٥٩ / ح ١، نقلاً عن المناقب للخوارزمي: ص ١٢٩ - ١٣٠. باختلاف يسير.

شاهد منه ﴿ قال ابن عباس: هو عليّ ؑ يشهد للنبيّ ﷺ وهو منه <sup>(١)</sup>.  
ومتها: ما عن الحمويّني مسنداً عن زاذان قال: سمعت عليّاً ؑ يقول:  
والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو كسرت لي وسادة - يقول: ثنيت - فاجلست عليها  
لحكمت بين أهل النوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم،  
وبين أهل القرآن بقرانهم، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه  
المواسي إلا وأنا أعرف آية تسوقه الى جنة أو تقوده الى نار، فقام رجل فقال: أيش <sup>(٢)</sup>  
نزل فيك؟ فقال عليّ ؑ: ﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه ﴾  
فرسول الله ﷺ على بيّنة من ربّه، ويتلوه، أنا شاهد منه <sup>(٣)</sup>.

وقريب منه باختلاف يسير ما رواه الثعلبي عن السبيعي <sup>(٤)</sup>.  
ومنها: ما عن الحمويّني أيضاً عن ابن عباس: ﴿ أفمن كان على بيّنة ﴾  
رسول الله ﷺ ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ عليّ ؑ خاصة <sup>(٥)</sup>.  
ورواه الثعلبي في تفسيره مسنداً عن ابن عباس <sup>(٦)</sup>.  
ومنها: ما رواه أبو نعيم الحافظ بثلاثة طرق عن عباد بن عبد الله الأسدي في

(١) الجرجاني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٥٩ / ج ٢، نقلاً عن المتأقّب لخبوارزمي: ص ١٩٧ باختلاف يسير. حيث نقل عن ابن عباس قوله: إنّه هو عليّ ؑ أوّل من شهد للنبيّ ﷺ وهو منه.

(٢) يعني: أي شيء.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٥٩ / ج ٤، نقلاً عن فرائد المسطين: ج ١ / ص ٣٣٨، ٣٣٩ باختلاف يسير عمّا هو مذكور هنا.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٦٠ / ج ٩.

(٥) المصدر السابق: ص ٣٥٩ / ج ٣، نقلاً عن فرائد المسطين: ج ١ / ص ٣٣٨.

(٦) المصدر السابق: ص ٣٦٠ / ج ٨.



خبر. قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾  
رسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربه، وأنا شاهد.

ورواه التظيري في الخصائص، وحماد بن سلمة عن ثابت عن أنس.  
والقاضي عثمان بن أحمد وأبو نصر العشير في كتابيهما، والفلكي المفسر عن  
مجاهد وعبدالله بن شدّاد<sup>(١)</sup>.

وأما عن طرق الشيعة فروايات متظافرة أيضاً:

منها: ما عن محمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين، عن عبدالله بن  
حماد، عن أبي الجارود، عن الاصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل  
بإنجيلهم، وأهل الفرقان بفرقانهم، بقضاء يصعد إلى الله يزهو، والله ما نزلت آية في كتاب الله  
في ليل أو نهار إلا وقد علمت في من أنزلت، ولا أحد مرّ على رأسه المواسي إلا وقد نزلت آية  
فيه في كتاب الله تسوقه إلى الجنة أو النار، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين فالآية  
التي نزلت فيك؟ قال: أما سمعت الله يقول: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد  
منه﴾؟

فرسول الله صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربه، وأنا شاهد له منه، وأتلوه معه<sup>(٢)</sup>.

ومنها: ما عن الشيخ في أماليه بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قام يوم  
الجمعة يخطب على المنبر فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش  
جرت عليه المواسي إلا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عزّ وجلّ أعرفها كما أعرفه.

(١) غاية المراد: ص ٣٦٠ / ح ١١.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦١ / ح ٣.

فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، ما آيتك التي نزلت فيك؟

فقال: إذا سألت فافهم ولا عليك أن لا تسأل عنها غيري! أفأت سورة هود؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أسمع قول الله عز وجل بقول: ﴿ أفمن كان

على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾؟

قال: نعم، قال: فالذي على بينة من ربه محمد ﷺ ويتلوه شاهد منه، وهذا الشاهد هو

منه وهو علي بن أبي طالب، وأنا الشاهد، وأنا منه<sup>(١)</sup>.

ومنها: ما عن الشيخ في مجالسه مسنداً عن جعفر بن محمد عن أبيه عن

جده علي بن الحسين عن الحسن عليه السلام في خطبة طويلة خطبها بحضور معاوية

وقال عليه السلام:

أقول: معشر الخلائق ولكم أفئدة وأسماع، وهو إنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا

واصفافنا واجتباننا، فأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيراً، والرجس هو الشك، فلا نشك في الله

الحق ودينه أبداً، وطهرنا من كل أذن وعيبة مخلصين إلى آدم نعمة منه، لم يفترق الناس فرقتين

إلا جعلنا الله في خيرهما، فأذت الأمور إلى أن بعث الله محمداً ﷺ للنبوّة واختاره للرسالة

وأنزل عليه كتابه. ثم أمره بالدعاء إلى الله عز وجل، فكان أبي عليه السلام أول من استجاب لله تعالى

ولرسوله، وأول من آمن وصدق الله ورسوله، وقد قال الله تعالى في كتابه المنزل على نبيه

المرسل: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ فرسول الله ﷺ الذي على بينة من

ربه، وأبي عليه السلام الذي يتلوه، وهو شاهد منه<sup>(٢)</sup> - الخطبة.

(١) غاية المرام: ص ٣٦١ / ج ٤. نقلاً عن أمالي الشيخ: ج ١ / ص ٣٨١-٣٨٢.

(٢) غاية المرام: ص ٣٦١ / ج ٤ نقلاً عن أمالي الشيخ الطلوسي: ج ٢ / ص ١٧٥.

ومنها: ما عن العياشي عن بريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي على بيّنة من ربه رسول الله صلى الله عليه وآله. والذي تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين عليه السلام ثم أوصياؤه واحداً بعد واحد<sup>(١)</sup>.

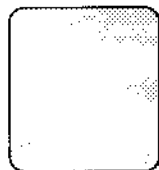
ومنها: ما رواه العياشي أيضاً عن جابر بن عبد الله بن يحيى قال: سمعت علياً عليه السلام وهو يقول: ما من رجل من قريش إلا وقد انزلت فيه آية أو آيتان من كتاب الله، فقال له رجل من القوم: فما انزل فيك يا أمير المؤمنين؟

فقال: أما تقرأ الآية التي في هود ﴿أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾؟  
محمد صلى الله عليه وآله على بيّنة من ربه، وأنا الشاهد<sup>(٢)</sup>.

(١) غاية المرام: ص ٣٦٢ / ح ٨ نقلاً عن تفسير العياشي: ج ٢ / ص ١٥٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦٢ / ح ٩ نقلاً عن تفسير العياشي: ج ٢ / ص ١٥٣.





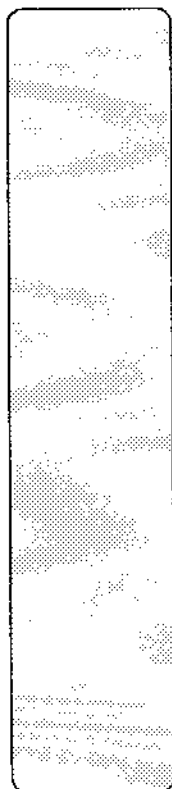
## الفصل التاسع

### الولاية الفاضلة

#### آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ  
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ  
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

(آل عمران: ٦١)





ومن الآيات ذات العلاقة بقضية الولاية آية المباهلة الواردة في قضية

نصارى نجران ومحاجتهم مع النبي ﷺ.

المحاجة هي تبادل الحجّة، ويقصد بها إثبات المدعى سواء كان دليلاً حقاً

أو مغالطة باطلة، وأما المباهلة فمأخوذة من الابتهاال بمعنى الاسترسال في

الدعاء والتضرّع. وقيل: إنها كلمة مأخوذة من البهلة أي اللعنة.

### قصة المباهلة

إن آية المباهلة مسبوقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...﴾

الذي جاء لقطع حجّة النصارى وإبطال دعواهم بأنّ المسيح ابن الله، استناداً

لكونه ﷺ قد ولد من غير أب، فالآية تقول لهم: بأنّ انعدام الأب لا يدل على

ألوهية الابن، ولو كان الأمر كذلك لكان آدم أحق بالألوهية من السيد المسيح، إذ

أنّ آدم ﷺ لم يكن مسبوقةً بأب ولا أمّ ومع ذلك لم يكن ابناً لله ولا متحداً معه،

وكذلك الأمر في عيسى بن مريم ﷺ، وإضافة إلى كون هذه الحجّة وحيّاً إلهياً بالغ

الدلالة فإنّها كانت أيضاً دليلاً عقلياً محكماً لإبطال تلك الدعوى، وإقناع

أصحابها بعدم صحتها، لو كانوا يحفظون بمسكة من التفكير وقدر من التعقل

الحرّ.

وبدلاً عن التراجع إلى الحقّ وحكم العقل ظلّ هؤلاء يصرون على الخطأ

ويتشبهون بالجدل. فجاءت المباهلة كطريق أخير لإسكات صوتهم وإيقافهم عند حدّهم. ونزلت الآيات لتقول للنبي ﷺ بأن حاجة هؤلاء إن استمرت رغم هذا الدليل القاطع فأعرض عليهم المباهلة وتسليم الأمر لله سبحانه حتى يؤيد الصادقين ويدحض الكاذبين.

وكان العرض نوعاً من التحدي واختبار الثقة والنوايا، وقد شكّل منعطفاً تاريخياً حاسماً في مسيرة الإسلام وصراعه مع الخصوم، وتأكيداً منها على التحدي واختبار مدى اطمئنان الطرف المقابل بدعواه، طببت الآية من الطرفين إحضار الخواص من الأهل والأبناء، ليكون ذلك أدعى لتزليزل المرتاب وتراجعه من جهة، ويكون الصدق والثقة بالنفس والاطمئنان بالموقف عند النبي ﷺ بأجلى حالاته أمام الخصم من جهة أخرى، بما قد يساعد على هزيمة الخصم قبل النزال.

ومما يلاحظ في الآية أنها قدّمت ذكر الأبناء والنساء على الأنفس وهي الخاصة.

وذلك مزيداً من التحدي للخصم ومزيداً من البيان لشدة الإطمئنان والثقة بالموقف، بحيث يبدي الاستعداد للتضحية بالأبناء والنساء قبل التضحية بالخاصة. باعتبار أنّ الإنسان يعتني بحفظ أبنائه وتأخذه الغيرة على نسانه أكثر ممّا يعتني بخاصته.

وقد اتفقت الروايات وأطبّق المفسّرون والمؤرّخون على أنّ الدعوة حينما تمّت ووافق النصاري على ذلك حضر النبي ﷺ بنفسه، ودعا عياً



والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام للحضور فحضرُوا، ولم يدع غيرهم. وحينما نظر النصاري إلى هؤلاء الصفوة، تراجعوا عن المباينة وأخذتهم الخشية على أنفسهم، واقترحوا أن يعطوا الجزية للنبي صلى الله عليه وآله فقبل النبي ذلك منهم.

### دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام

وليس هناك من شك في أن الآية تدل على منزلة رفيعة وفضل عظيم لأهل البيت عليهم السلام بحيث لا يباهل النبي صلى الله عليه وآله خصومه في ظرف حرج وحساس للغاية إلا بهم، وقد اعترف بذلك الفضل أكبر المفسرين والمحدثين من السنة. فقد قال العلامة الجصاص في «أحكام القرآن»: «نقل رواية السير و نقلة الأثر - لم يختلفوا فيه - أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة - رضي الله عنهم - ثم دعا النصاري الذين حاجوه إلى المباينة، فأحجموا عنها، وقال بعضهم لبعض: إن باهنتموه اضطرم الوادي عليكم ناراً، ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وقال الفخر الرازي في تفسيره بعد نقل رواية مماثلة في ذلك: «إعلم أن هذه الرواية كالمثقف على صحتها بين أهل التفسير والحديث»<sup>(٢)</sup>.  
وقال في الكشاف: «فيه دليل لأشياء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام»<sup>(٣)</sup>.

وقال الألويسي في «روح المعاني» بعد نقل الرواية: «و دلالتها على فضل

(١) الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن: ج ٢ / ص ١٦.

(٢) الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير: ج ٤ / ص ٨٩-٩٠.

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج ١ / ص ٣٧٠.

آل الله ورسوله مما لا يمتري فيها مؤمن، والنصب جازم الإيمان» الى أن قال: «والنواصب زعموا أنّ ما وقع منه ﷺ كان لمجرد إلزام الخصم و تبيكته، و أنّه لا يدل على فضل اولئك - على نبينا و عليهم أفضل الصلاة و أكمل السلام - و أنت تعلم أنّ هذا الزعم ضرب من الهذيان و أثر من مسر الشيطان.

و ليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل»<sup>(١)</sup>

إنّ دلالة الآية على فضل أهل البيت ﷺ و منزلتهم عند الله سبحانه أوضح من أن تحتاج إلى بيان و تقريب، لأنّ إشراكهم في المباهلة يعني إشراكهم في التحدي، و الاعتماد على منزلتهم عند الله سبحانه بحيث تكون موجبة لفضح الأعداء و نزول النعمة الإلهية عليهم. على غرار ما يحصل في المعارك الفاصلة عندما يقوم القائد بانتقاء أفضل أتباعه و تسليمهم المسؤوليات المهمة.

و من الملاحظ أنّ الآية استخدمت صيغة الجمع حينما دعت إلى المباهلة حيث طالبت بحضور ﴿أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم﴾.

و هذا يقتضي إحضار ما لا يقل عن ثلاثة أفراد من كلّ عنوان، كما هو مقتضى صيغة الجمع. و الشيء الذي أكده التاريخ الصحيح و الحديث الصحيح أيضاً أنّ النبي ﷺ حينما قام بامثال الأمر الإلهي اكتفى بإحضار الإمام عليّ و الحسن و الحسين و فاطمة ﷺ و هذا يدل على أنّ هؤلاء كانوا يمثلون صفوة الأمة و أخصّ الخاصّة و أحب الخلق إلى قلب النبي ﷺ. حيث إنّه طبق عنوان الأبناء على الحسن و الحسين ﷺ و عنوان (نساءنا) على فاطمة الزهراء، و عنوان

(١) الألوحي، روح المعاني، ج ٣ / ص ١٩٠.

(أنفسنا) عليه و علي أمير المؤمنين عليه السلام مع أنه كان بإمكانه أن يدخل زوجاته في عنوان (نساءه) و يدخل بعض صحابته في أفراد هذه العناوين؟ و أنّ هذه العناوين لا تنطبق على غيرهم في حسابات النبي صلى الله عليه وآله؟

إن المنطق السليم يستنتج من دخول السيدة الزهراء في عنوان (نساءنا) دون غيرها، و استبعاد زوجات النبي اللائي رتبا كنّ أقرب لغويا إلى هذا العنوان من السيدة الزهراء، و من دخول الإمام علي في عنوان (أنفسنا) دون سواه من الصحابة، أنّ لهذه السيدة و ذلك الإمام فضلا و منزلة بحيث يكونان بالدرجة الثانية من بعد النبي صلى الله عليه وآله في هذه الأمة خاصة في انطباق عنوان «النفس» على الإمام علي عليه السلام و هو انطباق أكيد دلّت عليه الآية بصراحة، و أيدته الروايات المروية بطرق الفريقين القائلة بأن الرسول صلى الله عليه وآله قال يوماً لعلي:

«أنت مّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعدي»<sup>(١)</sup> و قوله صلى الله عليه وآله: «أنت مّي وأنا منك»<sup>(٢)</sup> و قوله صلى الله عليه وآله: «علي نفسي فمن رأته يقول في نفسه شيئا»<sup>(٣)</sup>.

و قد احتج الإمام علي عليه السلام بهذه الفضيلة يوم الشورى، و اعترف القوم بها ولم ينكروا عليه ذلك. و لو كان هناك مجال للإنكار لأنكره المولعون بإنكار

(١) أنهى البحراني في غاية المرام الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله و المشتملة على هذه العبارة من طرق السنة إلى مائة حديث و من طرق الشيعة إلى سبعين حديثاً. غاية المرام: ص ١٠٩-١٥٢.

(٢) ذكره الترمذي في الجزء الخامس من سننه: ص ٦٣٦ هكذا «علي مّي و أنا من علي»، و ذكره الحاكم في المستدرک: ج ٣ / ص ١٣٠ بالصورة المذكورة في المتن، و ذكره في ص ١١٩ هكذا: «إن علياً مّي و أنا منه» و قال: صحيح على شرط مسلم. و ذكره النسائي في سننه: ج ٥ / ص ١٢٧، و ورد في صحيح البخاري: ج ٤ / ص ٢٢.

(٣) الثالث المصنوعة: ج ١ / ص ١٩٨.

فضائله أمثال ابن تيمية الذي اعترف بصحة الحديث القائل بأن نفس رسول الله ﷺ في الآية هو علي عليه السلام، إلا أنه حاول التقليل من شأن ذلك و عدم دلالته على مزية غير مزية القرابة، ثم التفت إلى أن هذه المزية مشتركة بينه وبين عمه العباس. و أن العم أقرب من ابن العم، فلماذا اختار النبي ﷺ علياً و لم يختار العباس عمه؟

ثم أجاب عن ذلك : بأن العباس لم يكن من السابقين الأولين و لا كان له به اختصاص كعلي<sup>(١)</sup> فاضطر إلى الاعتراف بأن الملاك في تنزيل الإمام علي بمنزلة نفس الرسول ﷺ ليس هو القرابة فقط. بل السبق إلى الإسلام والاختصاص بالنبي ﷺ، ثم إن المؤمن يتعبد بالنصوص و ليس له شأن باستنتاج الملاكات و المناطات، و علينا باتباع النصوص التي جعلت علياً بمنزلة نفس النبي ﷺ.

ثم إن دخول الأبناء و النساء في المحاجة حول النبوة و الرسالة دليل على أن لهؤلاء شأناً في ذلك و مدخلية في أمر الرسالة، بحيث يشاركون النبي ﷺ في محاجاته و مباهلاته و منعطفات حياته الحاسمة و المصيرية، و إذا جمعنا بين ذلك و بين آية ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الدالة على وجود شاهد من نفس النبي ﷺ يتلوه في المرتبة و يشاركه في مهام الرسالة، اتضح لنا نوع المدخلية و الشأن الذي كان لأهل البيت ﷺ في أمر المباهلة، و هو ما يتأكد أكثر عندما نلاحظ قوله

(١) ابن تيمية، أحمد عبد الحلیم، منهاج السنة النبوية: ج ٤ / ص ٢٤ ٢٥.

تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾<sup>(١)</sup>.  
و تؤيده الروايات الواردة في ذلك، و يقتضيه إطلاق التنزيل في قوله ﷺ  
لعلي ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

كما أن قوله تعالى في ذيل آية المباهلة: ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾<sup>(٢)</sup>.  
يراد به الكاذبون المفترض وجودهم في أحد طرفي المحاورة والمباهلة،  
و مقتضى صيغة الجمع - الكاذبين - أن يكون المدعي في كلا الجانبين أكثر من  
واحد و إلا لكان حق الكلام أن يقال مثلاً: «فنجعل لعنة الله على من هو كاذب»  
حتى يصح انطباقه على الفرد أيضاً .

و حينما يتمثل الطرفان كل منهما في جماعة فلا بد أن يكون الأمر الدائر  
في كل جماعة أمراً مشتركاً بين أفراد الجماعة بنحو من الاشتراك، و حيث كان  
النصارى المباهلون للنبي ﷺ يشارك بعضهم بعضاً في إنكار الرسالة الإسلامية  
و البعثة المحمدية فلا بد أن يكون الحاضرون مع النبي ﷺ في المباهنة  
مشاركين له بنحو ما في أمر الرسالة، و هذه المشاركة هي التي أوجبت انتخابهم  
و حضورهم إلى جانبه في المباهنة، و لا بد أن تكون المشاركة نوعاً أرفع من  
مجرد الإيمان بالإسلام و اتباع النبي ﷺ لأن هذا المعنى ليس خاصاً  
بأهل البيت ﷺ الذين يدل حضورهم في المباهنة على مواقع نوعية ممتازة على  
صعيد الرسالة الإسلامية، و ليست تلك إلا مواقع الإمامة، و هذا ما نبه عليه  
الاستاذ العلامة الطباطبائي ﷺ<sup>(٣)</sup>.

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) آل عمران: ٦١.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج ١ / ص ٢٢٣.

## شبهة ورد

و لو أغمضنا النظر عن هذا التفسير فإن الروايات الواردة بشأن الآية بلغت من الصحة مبلغاً قليلاً ما يتفق لحادثة تاريخية معينة بحيث لم يرد تشكيك فيها من قبل أي من أعلام الأمة، حتى قال الزمخشري: «فيه دليل ليس أقوى منه على فضل أصحاب الكساء» و جعل الآلوسي إنكار ذلك ضرباً من الهذيان و أثراً من مس الشيطان، و قال: «والنصب جازم الإيمان» إشارة الى أن الدافع الى إنكار فضل أهل البيت عليهم السلام المستفاد من الآية ليس إلا النصب و العداوة لهم، مع التصريح بأن النواصب هم الذين درجوا على مثل هذه التسويلات.

إن التشكيك في فضيلة رواها جم غفير من الصحابة، كجابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، و أنس بن مالك، و عثمان بن عفان، و عبدالرحمن بن عوف، و طلحة، و الزبير، و سعد بن أبي وقاص، و عبدالله بن عباس، و أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله، و لحقهم على روايتها جمع من التابعين كالسدي، والشعبي، والكلبي، و أبي صالح، و أطبق المحدثون والمؤرخون والمفسرون على إيداعها في موسوعاتهم، كمسلم<sup>(١)</sup>، والترمذي<sup>(٢)</sup> و الطبري<sup>(٣)</sup>، وأبي الفداء<sup>(٤)</sup>،

(١) صحيح مسلم، ج ٢ / ص ٢٧٨.

(٢) سنن الترمذي، ج ٥ / ص ٢١٠.

(٣) تفسير الطبري، ج ٣ / ص ٢٩٩ - ٣٠١.

(٤) تفسير ابن كثير، ج ٢ / ص ٢٣٦.

والسيوطي في تاريخ الخلفاء<sup>(١)</sup>، والزمخشري، والرازي، مع الإذعان منهم جميعاً بصحة هذه الروايات. إن التشكيك في فضيلة حظيت بوضوح تاريخي كهذا يقود أصحابه إلى السفسطة وهدم التاريخ، لأن مثل هذا التشكيك إن كان جائزاً ومقبولاً فعلى أي رواية يمكن الاعتماد؟

و بأي ستة يصح التبعيد؟ وهل هو إلا رفض للسنّة. و بالتالي هدم لأساس الدين و غلق لباب معرفة الأحكام و الشرائع و التفاصيل التي تكفّلت السنّة النبوية المطهرة بإيضاحها؟!!

و لذا فإن هذا التشكيك يبدو لذوي السلائق المعتدلة فرضاً خيالياً لا يستطيع أحد ارتكابه، لكنّه قد حصل فعلاً، حيث علق صاحب تفسير المنار على تلك الروايات بعد اعترافه باتفاقها على اختيار النبي لأهل بيته في المباهلة بما لفظه «و مصادر هذه الروايات الشيعية و مقصدهم منها معروف، و قد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنّة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية، فإن كلمة (نساءنا) لايقولها العربي و يريد بها بنته لاسيما إذا كان له أزواج، ولا يفهم هذا من لغتهم، و أبعد من ذلك أن يراد ب (انفسنا) عليّ - عليه الرضوان -، ثم إن و قد نجران الذين قالوا إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم و أولادهم»<sup>(٢)</sup>.

و غاية ما نستطيعه من الإعذار و حسن الظنّ هو توجيه هذا التشكيك بأنّه ينبعث من الزعم بعدم المطابقة بين تلك العناوين و الأفراد الذين نسبت

(١) تاريخ الخلفاء: ص ١٦٩.

(٢) رضا، محمدرشيد، تفسير المنار: ج ٣ / ص ٣٢٢.

الفضيلة لهم، و على أساس هذا الزعم اتهم المؤلف الشيعة بوضع تلك الأحاديث، ولكن من الذي يوافقه على هذا الاتهام والمغالطة التاريخية الفاحشة التي إذا قبلت منه فستكون النتيجة انهدام التاريخ و السنة النبوية، وكان الأحرى به - وهو يواجه ما يعتقد أنه مشكلة علمية - أن يعمل على إيجاد حل لهذه المشكلة، فإن هذا السبوك أقرب إلى النهج العلمي الموضوعي من إنكار روايات حظيت بوضوح تاريخي قلّ مثيله، و أطبق على صحتها الصحابة والتابعون و علماء الفريقين من مفسرين و مؤرخين و محدثين، و لو أنه سلك هذا الطريق لاهتدى بيسر إلى أن الآية لم تستعمل (نساءنا) بمعنى البنت (وانفسنا) بمعنى الغير و هو عليّ عليه السلام، بل المراد أن النبي صلى الله عليه وآله في مقام امتثال الأمر الإلهي لم يأت إلا بالسيدة الزهراء والإمام عليّ، ففهم من ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله قد طبق هذين العنوانين عليهما عليهما السلام دون غيرهما، و كان غرضه بيان المصداق لأمعنى اللفظ، و كذا ما استشككه من عدم وجود النساء و الأبناء مع نصارى نجران الذين باهتوه، فإن هذا الإشكال يكون مقبولاً لو كان المراد باسم الموصول «من» في قوله تعالى: ﴿فمن حاجك﴾ هو وفد نجران خاصة، و ليس الأمر كذلك؛ لأن المراد باسم الموصول «من» عنوان عام شامل لكل من يحتاجه من النصارى في أمر النبوة والرسالة، ولا شك أن فيهم أبناء و نساء، لكن الذين خرجوا إلى المباهنة و استجابوا لها كانوا هم وفد نجران فقط، و هذا لا يعني اختصاص اللفظ بمن حضر منهم، و إنما يعني أن الحضور من النصارى كانوا بعض المعنيين بالمحاجة و بتعبير أدق: إن الحاضرين كانوا أفراداً من بعض



العناوين دون العناوين الأخرى.

ولو كان هذا الاشكال وارداً لأورده من هو أكثر أصالة في العربية و براعة في الأدب و مهارة في معرفة أساليب الكلام و نقد كلمات الأدباء و البغاء. وهم نقلت هذه الروايات. و المؤرخون و المفسرون و المحدثون الذين تعاهدوها بالدرس و التفسير و التدوين دون أن يتوقف فيها أحد منهم.

و اليك نماذج مما رواه الفريقان في هذا المجال:

فمنها: ما رواه أبو نعيم الحافظ بإسناده عن الشعبي عن جابر قال: قدم علي رسول الله ﷺ العاقب و الطيب، فدعاهما إلى الإسلام. فقالا: أسدنا يا محمد، فقال: كذبتما، إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات الينا، قال: لحب الصليب و شرب الخمر و لحم الخنزير، قال جابر: فدعاهم إلى الملاعنة، فوعداه إلى أن يغادياه بالعدة. فغدا رسول الله ﷺ و أخذ بيد علي و الحسن و الحسين و فاطمة عليها السلام فأرسل اليهما، فأبيا أن يجيباه و أقرأ له. فقال رسول الله ﷺ: والذي بالحق لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً.

قال جابر: فيهم نزلت ﴿ ندع أبناءنا و أبناءكم ﴾.

قال جابر: (أنفسنا) رسول الله ﷺ و علي عليه السلام و (أبناءنا) الحسن و الحسين عليهما السلام و (نساءنا) فاطمة عليها السلام <sup>(١)</sup>.

و عن ابن المغازلي في المناقب <sup>(٢)</sup> و الحموي في فرائد السمطين مثله <sup>(٣)</sup>.

(١) البحراني، هاشم، غاية المراد: ص ٣٠١ / ح ٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٠ / ح ٤، نقلاً عن المناقب لابن المغازلي: ص ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠١ / ح ١٠، نقلاً عن فرائد السمطين: ج ١ / ص ٣٧٨.

و روى ذيه ابن الصبّاغ المالكي عن جابر<sup>(١)</sup>، و عن الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى - و قال: صحيح على شرط مسلم<sup>(٢)</sup> - و عن أبي داود الطيالسي عن شعبة الشعبي<sup>(٣)</sup>.

و منها: ما روى مسلم في صحيحه، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت فتلاث قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لأن يكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم، سمعت رسول الله يقول حين خلفه في بعض مغازيه، فقال له عليّ: يا رسول الله خلقتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، و سمعته يقول يوم خيبر: لا عطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله و يحبّ الله ورسوله، قال: فتناولنا لها، فقال: ادعوا لي عليّاً، فأتي به أرمد العين، فبصق في عينيه و دفع الراية إليه. ففتح الله على يده، و لما نزلت هذه الآية ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل﴾<sup>(٤)</sup> دعا رسول الله ﷺ عليّاً و فاطمة و حسناً و حسيناً، و قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي<sup>(٥)</sup>.

و رواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد الخوارزمي في كتاب «فضائل

(١) غاية المرام: ص ٣٠٣ / ح ١٧، انظر الفصول المهمة لابن الصبّاغ المالكي: ص ٧٠٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٣ / ح ١٨، هكذا نقل عن المستدرک، و الموجود في المستدرک بشأن المبالهة روية واحدة عن عامر بن سعد و وصفها الحاكم النيسابوري بأنها حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٣ / ح ١٩.

(٤) آل عمران: ٦١.

(٥) غاية المرام: ص ٣٠٠ / ح ٢٠، نقلاً عن صحيح مسلم: ج ٢ / ص ٢٧٨.

علي عليه السلام»<sup>(١)</sup> وابن الصباغ المالكي في «الفصول المهمة»<sup>(٢)</sup>.

ومنها: ما روى علي بن ابراهيم في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان سيدهم «الأهثم» و «العاقب» و «السيد» و حضرت صلاتهم، فأقبلوا يضربون الناقوس و صلوا. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم، فلما فرغوا دنوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: إلى ما تدعوننا؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث، فقالوا: من أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قل لهم ما تقولون في آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث و ينكح؟ فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: نعم، فقال: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله عز وجل إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون - إلى قوله - فتجعل لعنة الله على الكاذبين عليه السلام»<sup>(٣)</sup>.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فباهلوني، فإن كنت صادقاً نزلت اللعنة عليكم. وإن كنت كاذباً نزلت علي، فقالوا: أنصفت، فتواعدوا للمباهلة، فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤوسهم السيد والعاقب والأهثم: إن باهلنا بقومه باهلناه. فإنه ليس بنبي، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و معه أمير المؤمنين و فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال النصارى: من هؤلاء؟

(١) غاية المرام: ص ٣٠١ / ح ٥، نقلاً عن الخوارزمي في كتابه: ص ٥٩ - ٦٠ باختلاف يسير.

(٢) غاية المرام: ص ٣٠٢ / ح ١٥، انظر الفصول المهمة، ص ٥٧.

(٣) آل عمران: ٥٩ - ٦١.

فقبل لهم: هذا ابن عمه ووصيته وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان أبناء الحسن والحسين. فعرفوا. فقالوا لرسول الله ﷺ: نعطيك الرضا، فاعفنا من المباهنة، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وانصرفوا<sup>(١)</sup>.

ومنها: ما روى الشيخ في أماليه عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه، عن جده علي بن الحسين عليه السلام عن عمه الحسن بن علي عليه السلام قال: قال الله تعالى لمحمد ﷺ حين جده كفرة أهل الكتاب و حاجوه: ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾ .

فأخرج رسول الله ﷺ من الأنفس معه أبي. ومن البنين أنا وأخي. ومن النساء فاطمة أمي من الناس جميعا. فنحن أهله ولحمه ودمه ونفسه، ونحن منه، وهو متنا<sup>(٢)</sup>.

ومنها: ما روى الشيخ المفيد في الاختصاص عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: اجتمعت الأمة برها و فاجرها أن حديث النجراني حين دعاه النبي ﷺ الى المباهلة لم يكن في الكساء إلا النبي ﷺ و علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليه السلام، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ فكان تأويل (أبناءنا) الحسن والحسين، و (نساءنا) فاطمة، وأنفسنا) علي بن أبي طالب<sup>(٣)</sup>.

ومنها: ما روى الشيخ في مجالسه في حديث مناشدة علي عليه السلام يوم الشورى:

(١) غاية المرام، ص ٣٠٣ / ب ٤ / ج ١، نقلاً عن تفسير القمي، ج ١ / ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤ / ج ٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٤ / ج ٤، نقلاً عن الاختصاص للشيخ المفيد، ص ٥٦.

فهل فيكم أحد أنزل الله عزّ وجلّ فيه و في زوجته و ولديه آية المباهلة، وجعل الله عزّ وجلّ نفسه نفس رسول الله ﷺ غيري؟ قالوا: لا<sup>(١)</sup>.

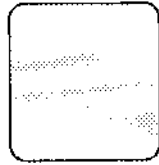
و منها: ما روى ابن بابويه عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث له مع الرشيد قال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، ولم يدع أحد أنّه أدخل النبي ﷺ تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلا علي بن أبي طالب و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام، فكان تأويل قوله عزّ وجلّ (أبناءنا) الحسن و الحسين، و (نساءنا) فاطمة، و (أنفسنا) علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup>.

و روى هذا المضمون غير واحد من أصحابنا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

(١) غاية المراد: ص ٣٠٤ / ح ٥، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ١٦٣

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٥ / ح ٨





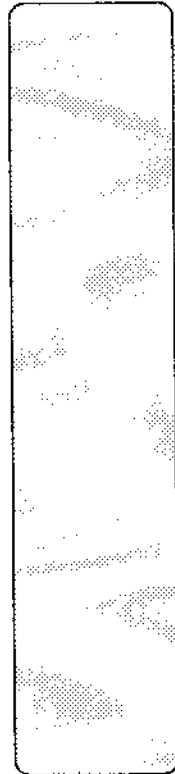
## الفصل العاشر

### الإمامة المعصومة

#### آية التطهير

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ  
وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٣٣)







و آية التطهير هي الأخرى تشارك في تشييد مدرسة الولاية. و ذلك من خلال دلالتها على عصمة أهل البيت عليهم السلام ، و قبل بيان هذه الدلالة لابد من استيضاح معاني بعضى المفردات التي وردت فيها. مثل: الإرادة و الرجس و البيت.

فالإرادة لها مفهوم واضح، و هي تنقسم الى قسمين: تكوينية و تشريعية، و الإرادة التكوينية ما تريد نفس المرید تحقيقه بنفسه فهي تتعلّق بفعل نفس المرید، و الإرادة التشريعية ما يراد من الغير تحقيقه على نحو الاختيار. فهي متعلقة بفعل الغير.

و الإرادة التكوينية لله سبحانه هي المتعلقة بأفعاله سبحانه بما هي صادرة منه، و المراد بها لابد من تحقّقه، فهو لا يقبل التخلف عنها البتة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup>.

أما إرادة الله التشريعية فهي المتعلقة بأفعال العباد الاختيارية. و لذا فهي ممكنة الانفكاك و التخلف عن المراد، فقد تتحقّق تلك الأفعال و قد لا تتحقّق. لأنّ الأمر منوط باختيار العباد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾<sup>(٢)</sup> و قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) يس: ٨٢

(٢) البقرة: ١٨٥

(٣) المائدة: ٦

والرجس: هو الشيء القذر<sup>(١)</sup>، وهو قد يكون حسياً كالتقذارات المعلومه، وقد يكون معنوياً وهو ما يموت النفس و يوجب تقذرها من الأعمال كالشرك والإثم والمعصية.

أما البيت فهو ما تحيط الجدران به، والمسقف من الدار وغيرها، وهو بيت السكنى، و يطلق على بيت القرابة والنسب، وأهل بيت السكنى من يعيش فيه، كما أنّ أهل بيت القرابة هم قرابة الرجل الأدنون.

و في ضوء هذا البيان نتساءل: هل إنّ الإرادة المذكورة في آية التطهير إرادة تشريعية أم إرادة تكوينية؟ وهل هي من قبيل ﴿ولكن يريد ليظهركم﴾ فتكون تشريعية؟ أم من قبيل ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ فتكون تكوينية؟

إنّ الطريق للفرز بين الأمرين و تشخيص النوع المناسب للآية يتم بتسنيط الضوء على القرائن الموجودة فيها، فإنّ الإرادة التشريعية تتناسب مع حكم عام وإرادة شاملة لجميع المشمولين بالشريعة، والإرادة التكوينية تتناسب مع حالة استثنائية و خصوصية فريدة في أفراد معدودين يراد إبرازها فيهم، فإذا استفدنا من القرائن أنّ الآية بصدد إبراز حكم عام و غرض تشريعي كانت الإرادة المذكورة فيها إرادة تشريعية، وإن كانت الآية بصدد إبراز صفة خاصة في أفراد معدودين معيّنين كانت الإرادة المذكورة فيها إرادة تشريعية.

و إذا نظرنا في الآية وجدناها من النوع الثاني، لوجود أداة الحصر «إنّما»

(١) الراسب الاسم، هانئ، الحسين بن محمد، المفردات: ص ١٨٨.

فيها بنحو تفيد إرادة التطهير لأفراد معينين دون سواهم، فكأتما تريد الآية أن تقول: يا أهل البيت أنتم الذين يريد الله أن يذهب عنكم الرجس و يطهركم من الأدناس، فهي إرادة تكوينية لا محالة، لأن الإرادة التشريعية للتطهير لا تختص بجماعة دون أخرى، وقد أعلن القرآن الكريم أن من أهداف الشريعة الإسلامية الوصول إلى مجتمع طاهر نقي. قال تعالى: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾، فالإرادة المذكورة إرادة تكوينية غرضها إبراز صفة خاصة في أهل البيت عليهم السلام، و تلك الصفة هي العصمة، لأن الإرادة التكوينية لله سبحانه لا بد من تحققها وعدم انفكاكها عن المراد، أي أن تطهير أهل البيت عليهم السلام من الذنوب والآثام أمر واقع بإرادة من الله سبحانه، وهذا هو معنى العصمة.

و هذا هو المعنى الذي يستفاد من الآية عندما ننظر إليها بنحو مستقل عما قبلها، و أما إذا نظرنا إليها بنحو مرتبط بما قبلها و بالسياق الذي جاءت فيه فقد يقال: بأن المعنى سيكون مختلفاً، و هو أن الله سبحانه أمر نساء النبي عليها السلام في الآية السابقة لآية التطهير بأوامر مؤكدة و تكاليف مشددة، ثم انتقل في آية التطهير من خطاب خاص بنساء النبي إلى خطاب شامل لهن و لغيرهن من خاصة النبي عليها السلام، فكان القصر في الآية للقلب، و التعميل بأن الغرض من تشديد التكليف بالنسبة إليهم ليس التضييق عليهم و إنما التطهير و التزكية لهم، حتى يصيروا بذلك أسرة مثالية صالحة لأن تكون نواة و محور المجتمع الإسلامي المطلوب، و حينئذ يكون المراد بأهل البيت عنواناً يشمل نساء النبي و خاصته معاً، و الإرادة المذكورة إرادة تشريعية، و القصر للقلب<sup>(١)</sup>، و ما ذكر من الأحكام

(١) يقسم القصر الإضافي إلى ثلاثة أقسام: ١- قصر أفراد ٢- قصر قلب ٣- قصر تعيين، مثال قصر القلب قول

الموجهة نساء النبي في الآية السابقة سارياً على آله أيضاً، لأن علة التطهير عامة تشمل نساء النبي و قرابته معاً، والعلة تعمم و تخصص كما هو معروف، و هذا الاحتمال في نفسه صحيح و معقول بناءً على اتحاد آية التطهير بما قبلها، ولكن الروايات الواردة في تفسير الآية والتي رواها الفريقان متظافرة الدلالة على نزولها بنحو مستقل و عدم ارتباطها بما قبلها، و لم تدل حتى الضعاف منها على نزولها ضمن الآيات السابقة عليها.

و لذا فإن الالتزام بالسياق لا مبرر له، و مما يؤكد انفصال الآية عما قبلها أن الآيات السابقة عليها استعملت في الخطاب ضمير الجمع المؤنث المتناسب مع نساء النبي، بينما استعملت آية التطهير ضمير الجمع المذكر، مما يدل على اختلاف المخاطب، و إن قيل: إن ضمير الجمع المذكر جيء به هنا لغلبة التذكير على التأنيث في الاستعمالات اللغوية، كان الجواب أن التغليب نكتة يمكن سريانها في كل الآيات، فلماذا سرى التغليب في آية التطهير دون ما قبلها؟ و لهذا فإن انفصال الآية عما قبلها من حيث المضمون والمعنى أمر متعين، و يبقى اندراجها في هذا المحل الغريب عنها بحاجة إلى تفسير، و يمكن تفسيره بأحد أمرين:

١- أن تكون كلاماً جاء القرآن به استطراداً لغرض خاص، كما في قوله تعالى: ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾<sup>(١)</sup> و لعل هذا

→ القائل «ما سافر إلا علي» رداً على من اعتقد أن المسافر غيره انظر: الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة: ص ١٩٣.

(١) يوسف: ٢٩.

الغرض الخاص هو بيان مقام أهل البيت عليهم السلام وما يمتاز به عن شأن نساء النبي صلى الله عليه وآله.

٢- أن تكون آية مستقلة في نزولها و قد وضعت هنا بأمر النبي صلى الله عليه وآله لمصلحة خفية. كالاحتياط و التحفظ عليها من التحريف. ذلك أنّ الله سبحانه قد ضمن سلامة القرآن من التحريف. وليكن هذا الاسلوب من الأساليب الطبيعية التي حققت ذلك الضمان.

هذا بناء على أن ترتيب القرآن بسوره و آياته و سياقه الذي عليه الآن كان بأمر من النبي صلى الله عليه وآله أما بناءً على كون ذلك من غيره فالأمر أيسر و الاحتمال أكبر.

و لهذه الحالة نظائر أخرى في القرآن الكريم. منها ما ذكرناه آنفاً في آية الإكمال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾<sup>(١)</sup> التي أثبتنا استقلالها عما قبلها.

و مهما يكن من أمر فإن علامة الإيمان هي الاحتكام الى السنة النبوية في معضلات الدين، و إذا عدّ أمر هذه الآية معضلاً فالحل الطبيعي الذي ينبغي لكل مسلم اللجوء إليه هو الرجوع الى نصوص النبي صلى الله عليه وآله الواردة في المسألة. حيث وردت الروايات الدالة على نزول الآية في أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم بعدد كبير يربو على السبعين حديثاً، و من طرق الفريقين، و من لم يعتبر بهذا القدر من الروايات فبأي دليل بعد ذلك يعتبر؟ و بأي حديث يؤمن؟

و هذه الروايات التي رواها الشيعة بطرقهم عن أمير المؤمنين و علي بن الحسين و محمد بن علي و جعفر بن محمد و علي بن موسى الرضا عليهم السلام و عن

أم سلمة و أبي ذر و أبي ليلى و أبي الأسود الدؤلي و عمر بن ميمون الأودي و سعد بن أبي وقاص، و روتها السنة بأسانيدهم عن أم سلمة و عائشة و أبي سعيد الخدري و سعد و وائلة بن الأصقع و أبي الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبي ﷺ و عبد الله بن جعفر و علي بن أبي طالب و الحسن بن علي ﷺ، كلها تدل على أنّ الآية نزلت في الخمسة الطيبة: رسول الله و ابن عمّه علي و بنته فاطمة و سبطيه الحسينين ﷺ، و هم المرادون بأهل البيت دون غيرهم. واليك نماذج منها:

١- روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسنده عن أبيه عن شداد أبي عمار، قال: دخلت على وائلة بن الأصقع و عنده قوم، فذكروا علياً، فلما قاموا قال: ألا أخبرك بما رأييت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة - رضي الله تعالى عنها - أسألها عن علي، قالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ و معه علي و حسن و حسين (رضي الله تعالى عنهم) أخذوا كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً و فاطمة فأجلسهما بين يديه، و أجلس حسناً و حسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه - أو قال: كساء - ثم تلا هذه الآية: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾ و قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، و أهل بيتي أحق<sup>(١)</sup>.

٢- روى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بسنده عن شهر بن حوشب، قال: سمعت أم سلمة زوجة النبي ﷺ حين جاء نعي الحسين بن علي لعنت أهل

(١) البحرائي، هاشم الحسيني، غاية المرام: ص ٢٨٧ / ح ١، نقلاً عن مسند أحمد: ج ٤ / ص ١٠٧.

العراق فقالت: قتلوه قتلهم الله، غرّوه و أذلّوه لعنهم الله، فإني رأيت رسول الله ﷺ (وقد) جاءته فاطمة غدية ببرمة قد صنعت فيها عصيدة تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: أين ابن عمك؟ قالت: هو في البيت، قال: اذهبي فادعيه وائتيني بابنيه، قالت: فجاءت تقود ابنيهما، كل واحد منهما بيد، وعليّ يمشي في أثرها، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأجلسهما في حجره، وجلس علي عن يمينه، وجلست فاطمة عن يساره.

قالت أم سلمة: فاجتذب من تحتي كساءاً خبيرياً كان بساطاً لنا على المنامة<sup>(١)</sup> في المدينة، فلقيه رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> (عليهم جميعاً فأخذ بشماله) طرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربه عز وجل، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً<sup>(٣)</sup>، قلت: يا رسول الله، ألسنت من أهلك؟ قال: بلى، فادخلي في الكساء (قالت: فدخلت في الكساء) بعد ما قضى دعاءه لابن عمه وابنيه وابنته فاطمة (رضي الله عنهم)<sup>(٤)</sup>.

٣- عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية فيّ وفي عليّ وفي حسن و حسين و فاطمة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾<sup>(٥)</sup>.

٤- عن الثعلبي أيضاً بإسناده عن العوام بن حوشب قال: حدثني ابن عم لي

(١) في غاية المرام: على طينانة.

(٢) في غاية المرام: فلقيه النبي ﷺ و أخذ طرفي الكساء.

(٣) في مسند أحمد كررت هذه العبارة ثلاثاً.

(٤) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٢٨٨ / ح ٨، نقلاً عن مسند أحمد: ج ٦ / ص ٢٩٢.

(٥) غاية المرام: ص ٢٨٨ / ح ١٥.

من بني الحرث بن تميم الله يقال له: مجمع، قال: دخلت مع أمي علي عائشة، فسألتها أمي قالت: رأيت خروجك يوم الجمل، قالت: إنه كان قد رآمن الله تعالى فسألتها عن علي، فقالت: سألتيني عن أحب الناس كان إلى رسول الله ﷺ، لقد رأيت عبياً و فاطمة و حسناً و حسيناً و قد جمع رسول الله ﷺ يغدق عليهم ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي و خاصتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، قالت: قمت: يا رسول الله، أنا من أهلك؟

قال: تنحي فإنك إلى خير<sup>(١)</sup>.

٥- روى الحميدي في المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري و مسلم من مسند عائشة، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة، عن عائشة، قالت: خرج النبي ﷺ ذات غداة و عليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عبي فأدخله، ثم قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾<sup>(٢)</sup>.

٦- روى مسلم في صحيحة بسنده عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: ألا و إني تارك فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله عزّ وجلّ، هو حبل الله من أتبعه كان على الهدى، و من تركه كان على ضلالة، و أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.

(١) البحار، هشام، غايه المرام: ص ٢٨٩ / ج ١٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٩ / ج ٢٢، الصحيح في تسمية المصدر المذكور هو «الجمع بين الصحيحين» لمحمد ابن أبي نصر الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ و لم أشر على هذا المصدر، و الاسم المذكور في المتن اشتباه ناشئ عن الأخذ من كتاب غايه المرام الذي ذكر المصدر هكذا.



فقلنا: من أهل بيته؟ نسأؤه؟ قال: لا أيهم الله. إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلّقها فترجع إلى أهلها و قومها، أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقة بعده<sup>(١)</sup>.

٧- روى موفق بن أحمد الخوارزمي في كتابه «فضائل أمير المؤمنين» عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ كان رسول الله يأتي باب فاطمة و علي تسعة أشهر كل صلاة، فيقول: الصلاة، يرحمكم الله، ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾.<sup>(٢)</sup>

٨- روى الحموي في كتاب فرائد السمطين عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: أجنس رسول الله ﷺ الحسن و الحسين علي فخذي و فاطمة في حجره و اعتنق علياً ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي.<sup>(٣)</sup>

٩- روى الحموي أيضاً عن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر. عن أبيه. قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة من السماء قال: من يدعو؟ مرتين. قالت: زينب أنا يا رسول الله. فقال لي: ادعي لي علياً و فاطمة و الحسن و الحسين، قال: فجعل حسناً عن يمينه و حسيناً عن يساره و علياً و فاطمة و جاهده. ثم غشاهم كساءاً خيبرياً. ثم قال: اللهم إن لكل نبي أهل بيت، و هؤلاء أهلي، فأنزل الله عز و جل ﴿إنما

(١) غاية المرام: ص ٢٩٠ ج ٢٧/٢. نقلاً عن صحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٧٩-٢٨٠. و قريب منه ما رواه الحموي عن زيد بن ارفم و عن الحسن بن علي عليهما السلام فراجع الأحاديث المرقمة (٣٣) و (٣٤) و (٣٥). من غاية المرام.

ص ٢٩٠-٢٩١. نقلاً عن فرائد السمطين: ج ٢ ص ٢٣٤-٢٣٥ و ص ٢٥٠ و ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٩٠ ج ٢٩، نقلاً عن الخوارزمي في كتابه: ص ٢٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩٠ ج ٣١، نقلاً عن فرائد السمطين، ج ٢ / ص ١٥.

يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، فقالت زينب: يا رسول الله، ألا أدخل معك؟ فقال رسول الله ﷺ: مكانك، فإنك إلى خير إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

١٠- روى ابن الصباغ المالكي في كتاب «الفصول المهمة» عن أم سلمة (رضي الله عنها) أنها قالت: كان النبي ﷺ في بيتها يوماً فأنته فاطمة بريمة فيها عصيدة، فدخلت بها عليه، فقال لها: ادع لي زوجك وابتيك، فجاء علي والحسن والحسين فدخلوا فجلسوا يأكلون والنبي ﷺ جالس على دكة تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجره قريباً منهم، فأخذ النبي ﷺ الكساء فغشاهم به، ثم قال: اللهم أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فأدخلت رأسي البيت، قلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ قال: إنك إلى خير، فأنزل الله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي معناها روايات كثيرة أخرى تدل على عدم دخول الأزواج في أهل البيت واختصاص الآية بالخمس الطيبة، وقد صرح مشايخ القوم بصحة غير واحدة منها.

ومن هنا تعرف و هن الرأي المنقول عمن اشتهر بالنصب والعداوة لأهل البيت ﷺ، كعكرمة مولى ابن عباس و من يحذو حذوه: إن الآية نزلت في أزواج النبي ﷺ.

(١) غاية العرام: ص ٢٩٠ / ح ٣٢، نقلاً عن فرائد السمطين، ج ٢ / ص ١٨-١٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٩١ / ح ٣٧، انظر الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ص ٧-٨.

و هذا الرأي - مضافاً إلى أنه غير مستند إلى كلام رسول الله ﷺ - اجتهاد في مقابل النص. من رجال معروفين بالكذب و الاختلاق، فارجع إلى ميزان الاعتدال<sup>(١)</sup> وغيره من كتب الرجال في المدرسة السننية حتى تعرف أحوال هؤلاء و موقفهم من أمير المؤمنين و أهل بيت النبي ﷺ و تعرف قيمة الرأي المنقول عنهم، و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

و في الختام نذكر بعض ما ورد من طرق أصحابنا الإمامية أيضاً:

فمنها: ما رواه محمد بن يعقوب بسنده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر

منكم﴾ (٢)؟

فقال: نزلت في علي بن أبي طالب و الحسن و الحسين ﷺ - إلى أن قال - : لكن الله عز وجل أنزله في كتابه تصديقاً لنيته ﷺ ﴿إِنَّمَا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً﴾، فكان علي و الحسن و الحسين و فاطمة ﷺ، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: اللهم إن لكل نبي أهلاً و نقلاً و هؤلاء أهل بيتي و ثقلي، فقالت أم سلمة: أأنت من أهلك؟ فقال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي و ثقلي الحديث (٣).

و عن ابن بابويه بسنده عن موسى الهاشمي بسر من رأى، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن علي، عن علي ﷺ قال: دخلت على

(١) ميزان الاعتدال: ج ٣ / ص ٩٣-٩٧.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٧.

رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة و قد نزلت عليه هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾، فقال رسول الله ﷺ: يا عليّ، هذه الآية فيك وفي سبطي و الأئمة من ولدك. فقلت: يا رسول الله، وكم الأئمة بعدك؟

قال: أنت يا عليّ، ثم الحسن و الحسين، و بعد الحسين عليّ ابنه، و بعد عليّ محمد ابنه، و بعد محمد جعفر ابنه، و بعد جعفر موسى ابنه، و بعد موسى عليّ ابنه، و بعد عليّ محمد ابنه، و بعد محمد عليّ ابنه، و بعد عليّ الحسن ابنه، و الحجة من ولد الحسن، هكذا أسماؤهم مكتوبة على ساق العرش، فسألت الله تعالى عن ذلك فقال: يا محمد، هؤلاء الأئمة بعدك، مطهرون معصومون، و أعداؤهم ملعونون<sup>(١)</sup>.

(١) الأبحراني، هاشم، غاية المراد: ص ٢٩٣ / ج ٦



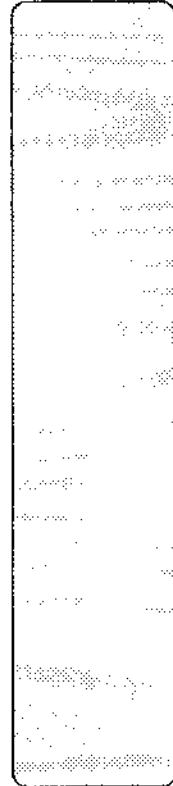
## الفصل الحادي عشر

### موَدَّةُ الْوَلَايَةِ

#### آيَةُ الْمَوَدَّةِ

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ  
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَمِنْ ثَمَرِهِ  
يُؤْتُهُ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ  
كَذِبًا عَفُورٌ شَكُورٌ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا  
فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَسْمَعْ اللَّهُ  
الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(الشورى: ٢٣ - ٢٤)





وتساهم آية المودة بتشديد جانب آخر من جوانب مدرسة الولاية، ألا وهو ضرورة عدم الاكتفاء بالإيمان العقلي بأئمة أهل البيت عليهم السلام وتجاوز ذلك إلى مستوى الشد العاطفي و الاتصال القلبي بهم، بحيث لا يبقى جانب من جوانب الشخصية الإسلامية خالياً من امتدادات الإمامية وإشعاعاتها، فهي تملأ العقل والقلب و السلوك، و لا تبقي فراغاً في هذه الشخصية يمكن لزعامه طاغوتية أن تملأه.

و قبل أن نستوحي من الآية عطاءاتها لا بد من استيضاح معاني المفردات الثلاثة التي وردت فيها: الأجر، المودة، القربى.

فالأجر: هو ما يعود إلى العامل من ثواب العمل. سواء كان دنيوياً أو أخروياً<sup>(١)</sup>.

والمودة: هي المحبة المستتبعة للمراعاة والتعاهد، أي أن يتقيد المحب بشؤون محبوبه ورغباته، و لعل وجود هذا الجانب فيها صرفها عن الاستعمال في محبة العباد لله تعالى.

و القربى: القرابة في النسب<sup>(٢)</sup>.

و بعد بيان معاني هذه المفردات الثلاثة نجد أن سيرة الأنبياء - و كما

(١) المفردات: ص ١١.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٩٩.

يفصح عنها القرآن الكريم أكدت دائماً على التعطف عماً في أيدي الناس، ورفض أخذ الأجر كضمن على الرسالة و ما يعانونه من صعاب و ما يقدمونه من توضيحات في سبيلها، مجتهدين بذلك رفعتهم و رفعة الرسالة الإلهية، مما يدل على خطأ التفسيرات السادية و الاقتصادية التي فسر بها نشوء الدين و ظهوره في الحياة الإنسانية. ففي سورة واحدة نجد القرآن الكريم يكثر حكاية ﴿و ما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين﴾<sup>(١)</sup> على لسان عدد من الأنبياء. إن خط الأنبياء جاء ليمنح الأرض عطاءات السماء بالتحو الذي يؤكد للأرض حاجتها إلى السماء و غنى السماء عنها، فكيف يطلب الأنبياء من الناس اجرا على الرسالة؟

و هل هذا إلا نقض في أهداف و مبادئ الرسالة الإلهية التي جاءت لترتبي الناس على أنهم الفقراء إلى الله و أن الله هو الغني الحميد؟

و هذا لا يلغي حق الأنبياء في الأجر، لأن الله لا يضيع عمل عامل في الأرض و لا في السماء. و إنما هو آدب نبوي جاء ليبين أن الأجير إنما يأخذ أجره من الذي استعمله. و أن من المناسب أن يأخذ الرسول أجره من الله الذي أرسله بهذه المهمة، و لا معنى لأخذ الأجر من الناس، خاصة مع الامتناع عن الإيمان و قلة الاتباع للأنبياء. ثم هل يقاس أجر الله بأجر الناس؟

والغرض كل الغرض من إعلان الأنبياء المتكرر لهذا المبدأ هو إزالة ما يعلق بأذهان الناس أحياناً من الوهم بأن الأنبياء جاءوا لأمر دنيوي. و أنهم

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.



بصد منافسة الناس في ذلك، مما قد يكون سبباً من اسباب امتناعهم عن الإيمان بالله سبحانه.

و جاء الرسول الأعظم ﷺ فسار على هذه السيرة أيضاً، وها هو القرآن يعلن ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ (١) ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ (٢).

و بعد كل هذا البيان من الحق أن يتساءل القارئ لآية المودة هل إنها كانت استثناءً من سيرة الأنبياء؟ بل من سيرة النبي الأعظم ﷺ نفسه؟ و هل أن النبي يناقض نفسه فتارة يمتنع عن طلب الأجر و أخرى يطلب الأجر؟

والجواب على هذا التساؤل: أن آية المودة لم تكن استثناءً من سيرة الأنبياء و لا تناقضاً مع سيرة النبي ﷺ، بل هي متوافقة تماماً معهما، ذلك أن مودة القريبى التي طالب بها لم تكن أجراً حقيقياً بقدر ما هي موقف مبدأى تحتاج إليه الأمة في مسيرتها و استقامتها، و المنتفع الأول و الأخير منها هو الأمة دون النبي ﷺ لما تحدثه فيها من الشد العاطفى بين الأمة و نواتها الأولى النقية المتمثلة بالبيت النبوى، بين الأمة و قيادتها المتمثلة بأئمة أهل البيت، وعندما تنشذ الأمة بقيادتها و نواتها الأولى تصبح استقامة هذه الأمة مضمونة و تعود وحدتها آمنة من كل خطر، وعندما تشبع الأمة حاجتها العاطفية الى موالاته القدوة و محبة الرموز الفكرية و السياسية في حياتها تصبح شخصيتها متكاملة، حيث التتابع بين العقل و العاطفة على محور واحد، و حيث الإشباع

(١) يوسف: ١٠٤.

(٢) الأنعام: ٩٠.

الكافي الذي لا يبقى فراغاً يدفع بالشخصية نحو رموز أخرى، كما أن انشداد الأمة نحو القيادة يجعل هذه القيادة ذات زخم و فاعلية بحيث تستطيع إنجاز المهام الحضارية الموكلة إليها.

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة حيث قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله﴾ (١).

فالأجر الحقيقي هو ما ينتفع به الأجير. بينما لانجد النبي ﷺ منتفعاً بمودة الأمة لقرباته. بل المنتفع هو الأمة.

و كأن النبي ﷺ طلب من الأمة أن تنفع نفسها، ثم جعل هذه المنفعة وكأنها أجر له. و بتعبير آخر: إن النبي ﷺ أراد أن يقول للأمة: إن أردت أن أستوفي حقوقي منكم فإنني أستوفيها عندما أجدكم في قوة و استقامة و صلاح، و لا تكونون كذلك إلا بمودة أهل البيت ﷺ، و لذا أطلب منكم مودتهم، و هذه غاية الرحمة و العطف و التدبير لشأن الأمة و مستقبلها و غاية التفاني في سبيلها. و قد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً﴾ (٢).

أما السبب في تسمية ذلك أجراً للرسول ﷺ، فبعد أن عرفنا أنه مجرد تنزيل و ادعاء نحتمل أن السبب فيه هو ما يبدو في الظاهر من أن مودة القريب و إكرامهم هو نوع من رد الجميل للرسول ﷺ على قاعدة «يكرم المرء في

(١) سبأ: ٤٧.

(٢) الفرقان: ٥٧.

أهله»، وهكذا تبدو مودة القربى وكأنها أجر تقدّمه الأمة للرسول ﷺ الذي أسسها و أوجدها، وكأنّ النبي أراد أن يستثمر الرابطة العاطفية التي تشدّ الأمة به ويرسخها أكثر بحيث تصبح أساساً لاستقامة الأمة وقوة شوكتها في المراحل التالية، فأراد أن يقول لهم: بأنّ من حقي أن أطلب منكم أن تكونوا أمة قوية مستقيمة بعدي، وبما أنّ هذه القوة والاستقامة لا تقوم إلا على أساس مودة القربى فلذا أنا أطلب منكم ذلك و أعدّه بمثابة الأجر الذي استحقه منكم لو طاببتكم به.

هذا ما يستفاد من الآية بمساعدة آيات أخرى مناظرة لها.

أما من هم اولئك القربى؟ فذلك ما تكفّلت به الروايات المتواترة التي بينت أنّ القربى المقصودين في الآية هم علي و فاطمة والحسن و الحسين، وهذا ما بلغ حدّ الضرورة في التصوّر الشيعي، كما ذهب إليه جمهور علماء السنة وقطع به أكابرهم، فلا يعبأ بالشاذّ المخالف كعكرمة و أمثاله ممّن كان يدينهم بغض أهل البيت ﷺ و العداوة لهم والاجتهاد في حرف الآيات النازلة بحقهم عمّا دلّت عليه من الفضيلة لهم.

وقد أورد بعضهم على تفسير الآية بأهل البيت إيرادين:

١- إنّ المراد من الآية لو كان هو أهل البيت ﷺ لما ورد حرف الجر «في» و لاستغنت الآية عنه بتعابير مثل «إلا مودة القربى» أو «إلا المودة للقربى» لأنّها أوضح في بيان ذلك لو كان هو المقصود.

و يكفي في جواب ذلك نقل ما يفهم من كلام الزمخشري من أنّه عبّر بـ «في» و لم يعبّر باللام تأكيداً، لأنّ الظرفية أبلغ و أكد للمودة، فيكون تقدير

الكلام «إلا المودة ثابتة في القربى متمكنة فيها»<sup>(١)</sup>.

٢- إن الآية مكية لأنها في سورة الشورى، وحينئذ لا يمكن انطباقها على

الحسن والحسين عليهما السلام لأنهما ولدا في المدينة.

و هو إشكال ضعيف جداً، فإنه قد أكد غير واحد من أئمة التفسير نزول

الآية في المدينة<sup>(٢)</sup>.

والتسليم بكونها مكية لا يمنع من الأخذ بالتفسير المذكور. لأن الآية

سيقت لبيان قضية حقيقة لا خارجية، و لنقل: إن الآية طرحت في مكة مفهوماً

معيناً. وإن النبي حدّد أفراد هذا المفهوم و مصاديقه التي كان بعضها موجوداً

في مكة ثم حضر البعض الآخر منها في المدينة. فما المانع من ذلك؟

### آراء أخرى في الآية

و ورد في تفسير الآية آراء أخر ليست لها أهمية علمية. وإنما نذكرها

لبيان دور العصبية والجهل في نشوئها وهي:

١- إن الآية تدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى أن يطلب من المشركين أن يحفظوا قرابته

منهم و لا يقطعوا الرحم الذي يربطه بهم، و أنه لا يطلب منهم أجراً غير

ذلك. وكان هذا الطلب وسيئة من وسائل التخفيف من وطأة المشركين

و حقدهم على النبي صلى الله عليه وآله.

(١) الرمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج ٤ / ص ٢١٩.

(٢) انطبالدبالي- محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١٨ / ص ٤٧-٤٨.

ولكنه رأي بعيد جداً، لسبب واضح هو أنّ طلب الأجر يدل على وجود حقّ مسلم يدعن به الطرف المقابل، والطرف المقابل لازال على الشرك و هو يعتقد أنّ النبي ﷺ يشكل خطراً عليه، و مثل هذه الحالة لا تتناسب مع طلب الأجر وكيف يطلب أجر الرسالة ممن بخطرها عليه؟

٢- وقيل: إنّ الآية تقصد ملاحظة القربى من الله سبحانه، فكأنّ الرسول ﷺ يطلب من المسلمين أداء القربى إلى الله سبحانه بإتيان الأعمال الصالحة، وهذا رأي بعيد، بل أبعد من سابقه، لأنّ لفظ القربى لا يستعمل في غير القرابة النسبية، فهذا التفسير ينطوي على تحريف.

٣- وقيل: إنّها تطلب من المسلمين أداء حقّ الرحم بينهم وصلة القربى، وهو أيضاً مردود لا يتقبله الذوق العرفي السليم، إذ لاوجه يصحح ربط هذا الحكم الجزئي بالنبي ﷺ بحيث يكون بمثابة الأجر على الرسالة، فإنّ أجر الرسالة لا بد أن يكون أمراً يؤثّر في مستقبلها و مستقبل الأمة و يصحّ نسبه الى النبي ﷺ بوجه عرفي معقول.

و إزاء هذه الآراء الهزيلة يستغرب الباحث من الإصرار عليها، بل و من مجرد اللجوء إليها مع ورود النص المتواتر و الإجماع المنقول من الفريقين على أنّ المراد بالقربى هم أمير المؤمنين و فاطمة والحسن و الحسين ﷺ، وهذا ما يجعلنا نزداد تمسكاً بأهل البيت ﷺ وبالسير على هداهم.

و من الضروري إيراد نماذج من تلك النصوص.

فمن طريق الستة جاءت روايات منها:

ما عن مسند أحمد بن حنبل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما

نزل ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ قالوا: يا رسول الله: من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: عليّ وفاطمة وابناهما<sup>(١)</sup>.

وقريب منها ما روي في صحيح البخاري<sup>(٢)</sup> و تفسير الثعلبي بسنديين، وعن الجمع بين الصحاح الستة بسنديين، و عن ابراهيم بن محمد الحموي<sup>(٣)</sup> وعن موفق بن أحمد الخوارزمي<sup>(٤)</sup> و عن أبي نعيم الاصبهاني صاحب «حلية الأولياء» و عن المالكي<sup>(٥)</sup> بسنديين. و عن ابن المغازلي في كتاب «المناقب»<sup>(٦)</sup>، غالبهم عن ابن عباس. و بعضهم عن سعيد بن جبير. و بعضهم عن مقاتل والكعبي.

و عن تفسير الثعلبي عن أبي الديلم قال: لمتا جيء بعلي بن الحسين (صلوات الله عليه) أسيراً قائماً على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم و استأصل شأفتكم و قطع قرن الفتنة، فقال علي بن الحسين ﷺ: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: قرأت الحم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ الحم؟! قال: قرأت: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ قال: لأنتم هم؟ قال: نعم<sup>(٧)</sup>.

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٠٦ / ج ١، نقلاً عن مسند احمد: ج ١ / ص ٢٢٩.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل: ج ٦ / ص ١٦٢.

(٣) الحموي، ابراهيم بن محمد، فرند السمطين: ج ٢ / ص ١٣.

(٤) الخوارزمي، موفق بن أحمد، المناقب: ص ١٩٤-١٩٥.

(٥) المالكي، ابن الصباغ، الفصول المهمة: ص ١١.

(٦) ابن المغازلي، علي بن محمد، المناقب: ص ٣٠٩.

(٧) البحراني / هاشم الحسيني / غاية المرام / ص ٣٠٦ - ج ٥.

وروى محمد بن جرير برجاله في كتاب «المناقب» أنّ النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: اخرج فناد، ألا من ظلم أجيّراً أجرته فعليه لعنة الله، ألا من تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا من سبّ أبويه فعليه لعنة الله. فنادى بذلك.

فدخل عمر وجماعة على النبي ﷺ و قالوا: هل من تفسير لما نادى؟ قال: نعم، إنّ الله يقول: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرأ إلا المودة في القربى﴾ فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره و غير ذريته فعليه لعنة الله، و اشهدكم أنا و عليّ أبوا المؤمنين، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله، فلما خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد، ما أكّد النبي لعليّ بغدير خم و لا غيره أشدّ من تأكيده في يومنا هذا.

قال خباب بن الأرت: كان ذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسعة عشر يوماً<sup>(١)</sup>.

و روى عليّ بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب «مقاتل الطالبين» أنّ الحسن بن عليّ عليه السلام قال في خطبة له بعد موت أبيه قال: أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، و من لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد ﷺ، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي الى الله بإذنه، و أنا ابن السراج المنير، و أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و الذين افترض الله مودّتهم في كتابه اذ يقول: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾، فالحسنة مودّتنا أهل البيت<sup>(٢)</sup>.

(١) غاية المرام: ص ٣٠٧ / ج ٩.

(٢) مقاتل الطالبين: ج ١ / ص ٣٤.

و مما رواه أصحابنا الإمامية ما رواه الكليني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ قال: هم الأئمة عليهم السلام <sup>(١)</sup>.  
 ومنها: ما رواه الكليني أيضاً عن إسماعيل بن عبد الخالق قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأبي جعفر الأحول و أنا أسمع: أتيت البصرة؟ فقال: نعم. قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ فقال: والله إنهم لقليل ولقد فعلوا وإن ذلك لقليل، فقال عليه السلام: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كل خير، ثم قال: ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾؟  
 قلت: جعلت فداك، إنهم يقولون إنها لأقرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: كذبوا، إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت، في علي و فاطمة و الحسن و الحسين، أصحاب الكساء عليهم السلام <sup>(٢)</sup>.

و روى عبد الله بن جعفر الحميري مثله في قرب الإسناد <sup>(٣)</sup>.

ومنها: ما رواه ابن بابويه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال لرجل: أما قرأت كتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: أما قرأت هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾؟ قال: بلى، قال: فنحن أولئك <sup>(٤)</sup>.

ومنها: ما رواه البرقي في المحاسن عن عبد الله بن عجلان، قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾، قال: هم الأئمة

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ٤٧١ / ح ٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٨ / ص ٦٥ / ح ٦٦.

(٣) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٠٧ / ح ٥٣، نقلاً عن قرب الإسناد: ص ٥٢.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٠٩ / ح ١٠، نقلاً عن أمالي الشيخ الصدوق: ص ٢٣٠.



الذين لا يأكلون الصدقة ولا تحلّ لهم<sup>(١)</sup>.

وقد روى أمثالها المفيد في «الاختصاص»<sup>(٢)</sup> والطبرسي<sup>(٣)</sup> وعلّي بن ابراهيم القمي في تفسيره<sup>(٤)</sup> والشيخ في أماليه<sup>(٥)</sup> وسعد بن عبدالله في «بصائر الدرجات»<sup>(٦)</sup> ومحمد بن العباس بن ماهيار في تفسيره<sup>(٧)</sup> وغيرهم.

(١) البحراني، هاشم، غاية المرام: ص ٣٠٩ / ح ١٣، نقلاً عن المحاسن: ج ١ / ص ١٤٥.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص: ص ٦٣.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٩ / ص ٢٩.

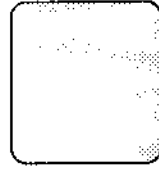
(٤) القمي، علّي بن ابراهيم، تفسير القمي: ج ٢ / ص ٢٧٥.

(٥) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ج ١ / ص ٢٧٦.

(٦) لمعلّ نسخة من هذا الكتاب كانت موجودة عند صاحب غاية المرام الذي حكى ذلك عنه، و إلا فالكتاب مفقود، والموجود الآن بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار.

(٧) هذا أيضاً من الكتب المفقودة، وقد استظهر الشيخ الطهراني في الذريعة: ج ٤ / ص ٢٤١-٢٤٢. وجوده عن السيد البحراني لكثرة ما ينقله عنه في غاية المرام.





## الفصل الثاني عشر

### من الوسطية الى الشهادة

#### آية الشهادة

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ  
عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة: ١٤٣)





ومن الآيات ذات العلاقة بالإمامة والولاية آية الشهادة التي انطوت على إشارات دقيقة الى بعض خصائص الإمامة، وقبل أن ندرس تلك الإشارات نحاول شرح بعض المفردات التي وردت فيها.

(كذلك) : قيل: إنّ الظاهر بملاحظة الآية السابقة على آية الشهادة والواردة في شأن القبلة ان المراد من قوله: (وكذلك) أنّه وكما كان تحويل القبلة لغاية هي الهداية الى صراط مستقيم كذلك جعلناكم أمة وسطاً لغاية هي تحقق شهادة تكم على سائر الناس. ولكن مع ذلك لا يبعد أن تكون الواو استثنائية، و(كذلك): كلمة يراد بها تثبيت الخبر بعكس لفظة «كلاً» التي يراد بها نقض الخبر، فتكون الآية حينئذ منفصلة عن آية تحويل القبلة التي جاءت قبلها.

قال الخفاجي في «نسيم الرياض» بعدما نقل عن الكشاف وشراحه كلاماً طويلاً في معنى (كذلك)، أقول:

لم أزل أبحث عن هذا كل من ناقشته من الفضلاء، فلم أظفر بما يثلج الصدر، فتصفحت الدفاتر وراجعت خزائن الضمائر فرأيت في شرح القوائد الطوال في شرح قول زهير:

كذلك خيمهم ولكل قوم  
إذا مستهم الضراء خيم  
نقلاً عن الجرجاني أنّه قال: لفظ «كذلك» يكون تثبيتاً لخبر متقدّم

أومتأخر. فهي نقيض «كلاً» لأنها تنفي ذلك<sup>(١)</sup>.  
 «الوسط»: وهو ما له الطرفان أو الأطراف، ويستعمل بمعنى العدل، لأن  
 الوسط هو أعدل ما يكون من الشيء وأبعده من الانحراف، أو لأن العدل حالة  
 متوسطة بين التفريط والإفراط.

«الشهادة»: الشهادة والشهود: الحضور مع المشاهدة إتما بالبصر  
 أو بالبصيرة<sup>(٢)</sup>، يقال: شهد المجلس أي حضره واطّلع عليه.

والمستفاد من موارد استعمال هذه المادة دخول معنى التطلع والإشراف  
 فيها بما يفيد معنى الرقابة والنظارة، ولذا تستعمل مع لفظة «على» الاستعلائية.  
 ومن ذلك ما تكرر في القرآن الكريم من إطلاق الشهيد على الله تعالى،  
 مثل قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾<sup>(٣)</sup>.

### الأمة الوسط

من الواضح أن الآية جاءت في سياق الامتتان على المسلمين، وبيان أن  
 الوسطية التي أعطيت لهم إنما هي تكريم لهم وتعظيم لشأنهم، وليكونوا بذلك  
 شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

وقد قيل في تفسير الوسطية آراء عديدة، منها:

١- إن المراد بالوسطية هو الاعتدال، أي إن هذه الأمة وضعت على نهج

(١) الخفاجي، أحمد. نسيم الرياض، ج ١ / ص ١٦٤.

(٢) المفردات: ٢٦٧.

(٣) البروج: ٩.

معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط.

والى هذا القول يرجع ما قيل من أن الوسطية تعني التوازن الذي تتسم به الشريعة الإسلامية، حيث وازنت بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد مجسدة بذلك واقعية هذا الدين، مما يجعل المسلمين أمة شاهدة على من سواها بالإفراط أو التفريط، فهي تشهد على الماديين بأنهم قد فرطوا بالجانب الروحي والمعنوي الراقي في الوجود الإنساني، وتشهد على المعرفين في الجانب الروحي بأن الرهينة إفراط في الروح تبعه تفريط بالجانب المادي والديني من الحياة الإنسانية.

وبما أن الرسول الأعظم ﷺ هو أكمل أفراد هذه الأمة لذا فهو الشاهد عليها، كما هي الأمة الإسلامية شاهدة على من سواها من الأمم.

٢- وقيل: إن معنى الوسطية هو أن هذه الأمة لما كانت ﴿خير أمة أخرجت للناس...﴾<sup>(١)</sup> فمن المناسب أن تكون واسطة العقد بين الأمم، والمدبرة لشؤونها.

٣- وقيل: إن معنى الوسطية هو توسط هذه الأمة بين الرسول وبين سائر الأمم، فالرسول شاهد عليها وهي شاهدة على سائر الأمم بأن الأحكام الإلهية قد وصلت إليها وتم تبليغها بها، أي أنها حجة على سائر الأمم تبلغهم الأحكام وتسعى بهم نحو الكمال.

٤- وقيل: إن المراد هو أن هؤلاء المخاطبين قد جعلوا بعناية تكوينية خاصة في حاق الوسط والاعتدال، ليكون ذلك أساساً لتكليفهم بمهمة

(١) آل عمران: ١١٠.

الإشراف على الناس ومراقبة أعمالهم وأقوالهم، بل والإشراف على مبادئ نياتهم، بحيث يطلعون عليها فيتحملون الشهادة ليؤدوها يوم القيامة.

هذه هي الأقوال والآراء التي قيلت في معنى الوسطية، ومهما يكن من شأن هذه الأقوال فمما لا يشك فيه أنّ وصف الوسطية لا يشمل كلّ أفراد الأمة، بل هو وصف للخواص منها ممن له شأن معنوي رفيع فيها، وقد أعطي للأمة على أساس احتوائها على أفراد من هذا القبيل، كما هي سيرة القرآن في اعطاء الجماعة أوصاف بعض أفرادها، كما في الخطاب الموجه الى بني اسرائيل ﴿وجعلكم ملوكاً﴾<sup>(١)</sup> فوصفهم بالملوكية مع أنّ هذا الوصف لا ينبطق إلا على فرد واحد منهم في كلّ عصر. وقال تعالى: ﴿وإني فضلتكم على العالمين﴾<sup>(٢)</sup> فوصفهم بالأفضلية مع أنّها صفة خاصة بفتنة معينة، وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...﴾<sup>(٣)</sup> فوصفهم بذلك مع أنّ فيهم الكثير ممن لا يستحقه.

والنتيجة أنّ اعطاء الأمة الإسلامية وصف الوسطية والشهادة هو على أساس أنّ هذا الوصف متحقق فيها دون غيرها من الأمم. ويكفي لتحقق ذلك وجود من يستحقه فيها. والمعنى أنّ الوسطية والشهادة وصف متحقق في هذه الأمة من خلال انصاف بعضها به.

والحقيقة أنّ الشهادة في القرآن الكريم موضوع تظافرت عليه العديد من

(١) الآية: ٢٠.

(٢) البقرة: ٤٧.

(٣) الفتح: ٢٩.



الآيات القرآنية، وهو موضوع مفضل له جهات عديدة، ومن تلك الجهات الشهادة يوم القيامة حيث يتنوع الشهود فيه على أعمال العباد، فهناك شهادة الأعضاء والجوارح، وهناك شهادة الملائكة المكرمين، وشهادة الأولياء المقربين كالأنبياء والصالحين، قال تعالى: ﴿وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾<sup>(٣)</sup>.

فهذه الآيات الكريمة تناولت موضوع الشهادة يوم القيامة، واختصت الآيتان المذكورتان من سورة النساء بإشارة دقيقة هي نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى، والمناسبة المقتضية لذلك هي أن الأحكام الجزائية تحتاج إلى إثبات وشهود وبيّنات، وبدون ذلك تصبح ظلماً وتعدياً، وكأن الآية أرادت أن تشير إلى أن الجزاء الإلهي وإن كان في نفسه مستغنياً عن الإثبات بالشهود والبيّنات إلا أن مع ذلك جاء مقروناً بأنواع عديدة من الشهادات، فهناك شهادة الشهداء على الناس، وهناك شهادة الرسول ﷺ على الجميع، وهذا ما يجعل الاعتقاد بالعدالة الإلهية في أقصى درجات الكمال.

وفي هذا السياق أيضاً يأتي قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) النساء: ٤٠-٤١.

اولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴿<sup>(١)</sup>﴾، وقوله تعالى في عيسى بن مريم: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ <sup>(٢)</sup>.

وبعد اتضح ذلك كله نأتي ونقول: إن الشهادة لا تتقوم إلا بالحضور والمشاهدة للواقعة التي يراد الشهادة لها أو عينيها، وهذا ما يعبر عنه بتحمل الشهادة، فطلب أداء الشهادة لا معنى له ما لم يتم أولاً تحمّل الشهادة من قبل الشاهد المطلوب، وحيث إن الأعمال بالنيات ولا يستطيع الشاهد أن يشهد لفرد بالصلاح وعلى آخر بالفساد ما لم يكن مطلعاً على نواياه وسرائره، لذا لا بد أن يكون الشاهد المطلوب يوم القيامة قد اطلع في دار الآخرة على أعمال وسرائر الناس الذين سيشهد لهم أو عليهم، وهذا ما يتجلى بوضوح من قوله تعالى حكاية عن عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ <sup>(٣)</sup> ذلك أن اقتران شهادة المسيح على أمته ورقابته عليهم بشهادة الله ورقابته عليهم تدل على التشابه بينهما، رغم أن شهادة المسيح شعاع من تلك الشهادة. وهذا لا يتم إلا بالإشراف والاطلاع على القلوب.

وهذا ما تؤكد آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله﴾ <sup>(٤)</sup> حيث جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد إلى

(١) هود: ١٨

(٢) النساء: ١٥٩

(٣) المائدة: ١١٧

(٤) التوبة: ١٠٥

جنب رؤية الله تعالى مما يشير الى نوع مسانخ بينهما.  
وهكذا، فمهما كان المراد من الوسطية وأي الآراء أنفأ فيها انتخبنا؛ فإن المقصود بالشهادة المذكورة في الآية هي الشهادة على الأعمال، وإن هؤلاء الخواص من الأمة منحوا هذه الفضيلة والكرامة نظراً لاتصافهم بالوسطية.  
ومن الجدير بالملاحظة أن آية أخرى وردت في القرآن الكريم قاربت في دلالتها آية الشهادة وهي قوله تعالى: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو ستاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾<sup>(١)</sup>.

وبالجمع بين الآيتين نستخلص وجود فئة معينة من الأمة الإسلامية حازت على مقام الشهادة على أعمال الناس، وإن هذه الفئة من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام. وقد وردت روايات من الفريقين تؤيد بل تدلّ على ما استفدناه من نفس الآيات من كون الشهادة هي الشهادة على الأعمال.

فعن طريق أهل السنة ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لييك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقال: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد عليه السلام وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، فذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ والوسط: العدل<sup>(٢)</sup>.

(١) الحج: ٧٨.

(٢) صحيح البخاري: ج ٥ / ص ١٥١.

وفي الكشف: روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبنيغ الأنبياء. فيطالب الله الأنبياء بالبيئنة<sup>(١)</sup>. ويقرب منه ما في الدر المنثور<sup>(٢)</sup> وروح المعاني<sup>(٣)</sup> ومجمع البيان<sup>(٤)</sup>.

وعن طريق الشيعة روى الكليني عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ قال: «نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه، قلت: قول الله عز وجل: ﴿ملة أياكم إبراهيم﴾؟ قال: إيانا عنى خاصة ﴿هوستاكم المسلمين من قبل﴾ في الكتب التي مضت «وفي هذا» القرآن ﴿ليكون الرسول عليكم شهيداً﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عز وجل، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدق صدقناه يوم القيامة، ومن كذب كذبناه يوم القيامة»<sup>(٥)</sup>.

وقد عقد في الكافي باباً عنوانه «في أن الأئمة شهداء الله عز وجل على خلقه» وكذا في البحار<sup>(٦)</sup>.

وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف، ج ١ / ص ١٩٩.

(٢) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، ج ١ / ص ٢٦٧.

(٣) الآلوسي، محمود، روح المعاني، ج ٢ / ص ٥.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج ١ / ص ٢٢٥.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢٤٦-٢٤٧ / ج ٢، باب «في أن الأئمة شهداء الله عز وجل على خلقه».

(٦) بحار الأنوار، ج ٢٣ / ص ٣٣٣، باب ٢٠.

لا يجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟! كلاً، لم يعن الله تعالى مثل هذا من خلقه، يعني: الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وهم الأمة الوسطى، وهم خير أمة أخرجت للناس<sup>(١)</sup>.

وهذا الصنف من الأخبار وإن كان أضيّق مدلولاً من آية الشهادة من جهة، حيث إن مدلوله نوع من العمل وهو التبليغ لجميع الأعمال من الطاعات والمعاصي كما هو مدلول الآيات، إلا أن ذلك لا يضّر لأن الغرض منها هو إثبات الشهادة لفئة خاصة من الأمة دون جميع أفرادها. وأنها شهادة على الأعمال، ودلالة هذه الأخبار على ذلك مما لا يقبل الإنكار.

نعم، أخبار عرض الأعمال على رسول الله ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام الواردة جلّها في تفسير آية ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ الآتي ذكرها بقوة النص على عدمهم عليهم السلام بأعمال العباد، مثل ما رواه العلامة المجلسي في البحار عن «البصائر» عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول في الأيام حين ذكر يوم الخميس قال عليه السلام: هو يوم تعرض فيه الأعمال على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام<sup>(٢)</sup>.

وفي بعض تلك الروايات اضيف يوم الاثنين إلى يوم الخميس، وفي بعضها: إن ذلك يتم في الصباح والمساء من كل يوم. وقد يبدو التعارض والاختلاف بين هذه الروايات من جهة، وبين آيات

(١) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١ / ص ٨٢

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٣ / ص ٣٤٦

الشهادة وآية الرؤية من جهة أخرى، لأن الآيات تدل بظاهرها على إشرافهم المستمر على الأعمال، بل على النوايا والخواطر القلبية التي انطلقت منها، في حين نجد تلك الأخبار تدل بظاهرها على عدم العلم بذلك إلا حين العرض في الوقت المحدد له، ثم لماذا هذا العرض إذا كانوا عليهم السلام مشرفين مطلعين على الأعمال ومبادئها النفسانية؟

وللإجابة على هذا الإشكال نقول: إن للعلم مراتب ودرجات، وإن الآيات قد أشارت إلى المرتبة العالية منه عند الأئمة، فيما أشارت الأخبار إلى مرتبة عادية منه، فلا تعارض بينهما، وبهذا الوجه يمكننا تصحيح الأخبار الدالة على عرض الأعمال على الله سبحانه وتعالى يوم الخميس أيضاً، مع أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

### مقتضيات هذا المقام الرفيع

وحيث تبين لنا بعد هذا البيان والتفسير لآيات الشهادة ثبوت العلم الحضوري للأنبياء والأئمة عليهم السلام، أصبح من الضروري الإشارة إلى أن ثبوت هذا المقام الرفيع لهؤلاء الشهداء الكرام يقتضي ثبوت لوازم وخصائص أخرى لهم، مثل:

١- إن عدمهم بالغيب يتم بسبل خاصة تختلف عن السبل العامة التي تمون عامة الناس بأبناء الغيب، وسيأتي توضيح ذلك مفصلاً في بحث العلم بالغيب من الخاتمة.

٢- إنَّ العلم الحضورى يستلزم حضور المعلوم بوجوده الخارجى عند العالم به، وقد برهن في محلّه أنّ هذا المعنى لا ينطبق إلا على ما يعتبر عنه في الفلسفة «علم العلة بمعنى ما به على المعلول»، وهذا ما يكشف أنّهم يبيّنون واسطة الفيض الإلهي إلى الناس، وهو ما يعتبر عنه بالولاية التكوينية للمعصوم.

ويدلّ على ذلك روايات، منها ما رواه ثقة الإسلام الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ الله خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المسوطة على عباده بالرفقة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلّ عليه، وخزائنه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض، وعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله»<sup>(١)</sup>.

٣- العصمة من الضلال، لأنَّ الآية أطلقت وصف الوسط ولم تقتيده ممّا يدلّ على أنّهم في قلب الوسط الحقيقي، ولذا فهم معصومون عن الانحراف والإفراط والتفريط.

على أنّ قوله تعالى: ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾ يدلّ على حصول عملية اصطفاء من بين الناس. والاصطفاء يساوق الاجتباء المذكور في قوله تعالى:

﴿هو اجتباكم﴾ والذي وصف الله به عدداً من أنبيائه كإبراهيم ويوسف عليه السلام، ومعلوم أنّ الاصطفاء والاجتباء يدلّ على حصول عملية استخلاص وتنقية من الأكدار والشوائب، ولذا قال إبليس: ﴿فبعزتك لأغوينهم

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١ / ص ١٩٨ / ح ٥.

أجمعين ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾<sup>(١)</sup> وقال سبحانه في وصف يوسف عليه السلام: ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾<sup>(٢)</sup> وكيف ترى يكون من تعهد الله سبحانه بصرف السوء والفحشاء عنه؟

٤- إن هؤلاء الشهداء موجودون في الناس ولو على سبيل البدل والتدرج ما دام الإسلام إلى يوم القيامة، لأن استمرار الإسلام يعني استمرار الشهادة على الناس، واستمرار الشهادة يعني استمرار وجود الشهداء إلى ذلك اليوم، وهذا ما لا يتم إلا بغيبة الإمام المهدي عليه السلام واستمرار حياته الخفية إلى نهاية التاريخ. وقد دلت على ذلك رواية نقلها ثقة الإسلام الكيني عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾<sup>(٣)</sup>.

قال: «نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة، في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم، ومحمد ﷺ شاهد علينا»<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة ص: ٨٢، ٨٣.

(٢) يوسف: ٢٤.

(٣) النساء: ٤١.

(٤) الكليني، محمد، بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢٤٦ / ح ١.





## الفصل الثالث عشر

### من الاجتباء الى الشهادة

#### آية الاجتباء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا  
وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾  
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا  
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ  
إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا  
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ  
عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ  
وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ  
النَّصِيرُ﴾

(الحج: ٧٧ - ٧٨)





ومن الآيات القرآنية ذات العلاقة بقضية الإمامة آية الاجتناء الواردة في سورة الحج، وهي تشترك مع الآية السابقة وتتشابه معها إلى حد ما. ذلك أن آية الشهادة جعلت الوسطية أساساً لانتخاب الأمة الإسلامية شاهدة على من سواها من الأمم، وفي آية الاجتناء عدّ اجتناء هذه الأمة للرسالة الإسلامية سبباً وأساساً لإعطائها صفة الشهادة على سائر الناس، وتكرار الشهادة في آيتين منفصلتين يفيد تأكيدها وثبوتها، كما أن اختلاف الآيتين في تعيين ما هو السبب والأساس للشهادة يدل على تعدد ذلك وأن الأساس هو مجموع السببين الوسطية والاجتناء معاً.

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة الاجتناء وما هو المراد به لابد لنا أولاً من ملاحظة أن هذه الآية جاءت بعد أمر سابق للمؤمنين عموماً بالركوع والسجود ومطلق العبادة وفعل الخيرات والجهاد في الله حق جهاده، ثم بيّنت الآية في سياق الامتنان اجتناء المسلمين للرسالة الإسلامية ورفع الحرج عنهم وتسمية شيخ الأنبياء ﷺ لهم باسم المسلمين قبل ظهور الإسلام بما يقرب من ألفي سنة. وكأنها تريد أن تبين لهم ضرورة الالتزام بتلك الأحكام، فهي من جهة أحكام سهلة لا حرج فيها، ومن جهة ثانية أنّ الملاك في الاجتناء للرسالة الإسلامية هو الالتزام المفترض بهذه الأحكام، ومن جهة ثالثة أنّ هناك عناية سماوية بالمسلمين حيث تمّ اجتناءهم للإسلام وظهرت تسميتهم بهذا الإسلام على

لسان رائد التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم بينت الآية في خاتمتها أن الالتزام بتلك الأحكام والخصائص المترتبة عليه من الاجتناء ورفع الحرج وإطلاق تسميتهم قبل ظهورهم على لسان خليل الله، ما هي إلا مقدمات لتكريمهم بأن يكون الرسول شاهداً عليهم ويكونوا هم شهداء على الناس، فالشهادة هي الغاية من الاجتناء.

ولكي يتضح لدينا المعنى الدقيق للاجتناء لابد من ملاحظة المعنى اللغوي له أولاً.

قال الراغب في «المفردات»: «يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته. والحوض الجامع له جابية» ثم قال: «الاجتناء الجمع على طريق الاصطفاء. قال عز وجل: ﴿فاجتناء ربّه﴾ واجتناء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي»<sup>(١)</sup> وقال الزمخشري في «أساس البلاغة»: «اجتناء: اختاره، مستعار منه لأن من جمع شيئاً لنفسه فقد اختصه واصطفاه»<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو البقاء في «الكليات»: «الاجتناء هو أن تأخذ الشيء بالكلية»<sup>(٣)</sup>. ويقرب منه ما قاله الآخرون.

وعندما نتأمل في لفظة الاجتناء نجدها متلازمة مع التسليم. فإذا كان أمام المجتبي أفراد معينون فإن اجتناءه لزيد دون عمرو ولا بد وأن يتم على أساس معين، والأساس لابد أن يكون هو القرب أو الأقرية. وفي مقام العبودية يكون

(١) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات: ص ٨٧.

(٢) الزمخشري، محمود بن عمرو، أساس البلاغة، ج ١ / ص ١٠٧.

(٣) الحسيني الكنتوي، أبو البقاء، كليات: ص ٣٠.

معنى الأقربية هو التسليم الأكثر للمعبود، وذلك حينما يسلم العبد قياده للخالق سبحانه ويتجه بكل وجوده نحوه، ويقمع ما في النفس من طغيان يجمع بها نحو غيره. وهذا يعني أن الاجتناء صفة مترتبة على بلوغ مرتبة التسليم لله. وأن هذه المرتبة إلا للخواص، وربما أمكن تأكيد ذلك بملاحظة أن جملة ﴿هو سَمَّاكُمْ﴾ للمسلمين من قبل ﴿لم تعطف في الآية على جملة ﴿هو اجنباكم﴾: مما يدل على كمال اتصال المعنيين: الاجتناء والإسلام، نظير قوله تعالى: ﴿أمدكم بما تعلمون﴾ أمدكم بأنعام وبنين﴾<sup>(١)</sup>.

فإن عدم وجود الفاصل بين الجملتين وعدم وجود عاطف بينهما يدل على اتحادهما في المعنى، ولو أنه وصل بينهما بعاطف مثل حرف «الواو» فإن هذا العاطف سيدل على نوع مغايرة بين الجملتين في المعنى رغم وجود مناسبة لوحظت، فكانت سبباً لتربط بينهما، وذلك على غرار ما ذكره أهل المعقول في الحمل.

والنتيجة: أن انفصال الجملتين السابقتين في الآية يدل على كمال الاتصال والاتحاد بين الاجتناء ومقام التسليم.

ويؤيد ذلك أيضاً أن الآية واردة في سياق الامتنان، والذي يتناسب مع هذا السياق هو مرتبة من الإسلام تستحق الامتنان بحيث تكون أساساً للاجتناء والاصطفاء.

وحيث إن الآية نسبت للإسلام إلى إبراهيم الخليل ﷺ لذا فإننا سنحاول البحث في مراتبه واقتناص المرتبة المقصودة ذات العلاقة بالاجتناء من سيرة

هذا النبي العظيم.

فعندما نثلوا القرآن نجده يصف رائد التوحيد بالإسلام، قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿<sup>(١)</sup>.

ويتضح من هاتين الآيتين جلياً أنّ اصطفاء الله سبحانه لإبراهيم الخليل في الدنيا وعدّه من الصالحين في الآخرة جاء مترتباً على تسليمه الفوري الكامل لله سبحانه ﴿اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾، ومعلوم أنّ الاصطفاء والاجتباء بمعنى واحد. وقال تعالى أيضاً: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التّواب الرحيم﴾ ربنا وبعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ <sup>(٢)</sup>.

فقرأ هنا أنّ إمام الأنبياء إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل يطلبان من الله أن يلهمهما مقام التسليم له، وعندما تندبّر هذا الدعاء نجده قد صدر من إبراهيم ﷺ وهو في أواخر عمره وبعد أن نال جميع المراتب من الرسالة والنبوة والإمامة، وذلك بدلالة اشتراك إسماعيل ابنه معه فيه عند رفع القواعد من البيت، ونحن نعلم من القرآن الكريم أنّ الله قد وهبه الذرية وهو شيخ عجوز، قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ <sup>(٣)</sup>، ومعلوم أنّه كان نبياً قبل

(١) البقرة: ١٣٠ - ١٣١.

(٢) البقرة: ١٢٧ - ١٢٩.

(٣) إبراهيم: ٣٩.

ذلك، كما مرّ تفصيله في الفصل الثاني.

فماذا يفهم من نبيّ يعدّ من أعاظم الانبياء والمرسلين. وقد بلغ في التوحيد والتسليم مقاماً قلّ نظيره في الانبياء. ولكنه مع ذلك يسأل الله أن يرزقه وابته مقام التسليم الأرفع؟

إذا تدبرنا هذا الدعاء ملياً توصلنا إلى أن التسليم المقصود في قوله تعالى: ﴿اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين﴾ أنّه لم يكن تسليماً من المرتبة العادية، وإنما من المرتبة التي تتناسب مع من هو شيخ الانبياء، والدرجة التي تؤهّل صاحبها للاصطفاء الربّاني والاجتباء الالهي ﴿ولقد اصطفيناه في...﴾ وهكذا نتوصل الى أنّ الاجتباء المذكور في آيتنا - محلّ البحث - مبنيّ على تلك المرتبة الخاصة من التسليم الإبراهيمي.

وربّما يؤيد ذلك أنّ آية الاجتباء لم تربط بين الشهادة ومطلق التسليم لله. وإنما ربطت بين الشهادة وبين إسلام منسوب الى ابراهيم ﴿ملة أبيكم ابراهيم هو سماءكم المسلمين من قبل﴾ وهذا يعني أنّ الاجتباء ليس لكلّ من نطق بالتوحيد وإنما لمن بلغ المقام الابراهيمي في التسليم، وحينئذ تكون الالف واللام في (المسلمين) عهدية يراد بها الاشارة الى اسلام خاص معهود. فيكون المعنى هو: أنّ الدين الذي لاحرج فيه هو ملة أبي الموحدين ابراهيم وأنّ الله سماءكم المسلمين من قبل على لسان ابراهيم وفي هذا القرآن، وبهذا يمكننا الجمع بين ما دلّ من الروايات على أنّ الضمير (هو) يرجع الى الله وما دلّ منها على رجوعه الى ابراهيم.

وفي ضوء ذلك كلّه يتضح لنا أنّ الآية تتحدّث عن مقام رفيع وشرف منيع

ورتبة عالية لا يمكن أن تعطى إلا لأفراد مؤهين تأهيلاً خاصاً، ولهم منزلة خاصة. أما نسبة ذلك إلى عموم الأمة وتوفر الآية على خطاب عام فإنما هو باعتبار وجود من هو متصف بالاجتباء في هذه الأمة.

فكأن الآية تريد أن تقول أن الاجتباء واقع في هذه الأمة، ومثل هذا الكلام لا يفهم منه شمول الصفة لكل الأمة بل يفهم منه أن هناك أفراداً من هذه الأمة يحظون بهذه الصفة، وهذا بنفسه خصوصية للأمة كلها، فهناك أمة تحظى بأفراد من هذا القبيل وهناك أمة أخرى لا تحظى بهم.

وهكذا نجد الآية متطابقة في نيتها مع آية الشهادة التي انتهى البحث فيها إلى إمامة الأنمة ﷺ وأنها دالة على خصوصية فيها. وهذا ما يتأكد أكثر إذا جمعناهما مع الآيات المذكورة آنفاً من سورة البقرة التي بينت أن المخاطب فيها هم ذرية إبراهيم ﷺ خاصة، وهو عنوان ينطبق على الأنمة ﷺ كما ينطبق عليهم ﷺ عنوان «أييكم» في قوله: ﴿ملة أيكم إبراهيم﴾ من آية الاجتباء التي نحن بصدد ها.

ومما يسند ذلك أيضاً ما ورد في روايات المدرستين عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم».

فمنها: ما رواه في «الدر المنثور» أنه ﷺ قال: أنا دعوة إبراهيم، قال وهو يرفع القواعد من البيت ﴿ربنا وبعث فيهم رسولا منهم﴾ حتى أتت الآية (١).

وقد روى أصحابنا هذا المضمون بطرق عديدة، مثل ما رواه الحويزي في

(١) السبوتلي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور: ج ١ / ص ٢٥٥.



نور الثقلين<sup>(١)</sup> والقمي<sup>(٢)</sup> في تفسيره<sup>(٣)</sup> والصدوق في الخصال<sup>(٤)</sup>. ومنها: ما رواه في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل ذكر فيه قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم امة...﴾ ثم قال عليه السلام: أخبر - أي الله تعالى - عن هذه الأمة وممن هي. وأنها من ذرية إبراهيم وذرية اسماعيل من سكان الحرم، ممن لم يعبدوا غير الله قط. الذين وجبت لهم الدعوة - دعوة إبراهيم وإسماعيل - من أهل المسجد. الذين أخبر عنهم في كتابه أنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً<sup>(٥)</sup>.

وأصرح منه خبر العياشي في تفسيره عن أبي عمرو والزبير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد عليه السلام من هم؟ قال: أمة محمد بنو هاشم خاصة، قلت: فما الحجّة في أمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله عليه السلام ﴿واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّبتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم عليه السلام.

فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذريتهما أمة مسلمة وبعث فيها رسولا منها - يعني من تلك الأمة - يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم دعوته الأولى بدعوة أخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصيح أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال:

(١) الحويزي، عبد علي بن جمعة، نور الثقلين: ج ١ / ص ١٠٩، ج ٢٨١ ٢٨٢.

(٢) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١ / ص ٦٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ج ١ / ص ١٧٧.

(٤) نور الثقلين، ج ١ / ص ١٠٩، ج ٣٨٠، نقلاً عن الكافي: ج ٥ / ص ١٦ / ج ١.

﴿ واجنبي وبنّي أن نعبد الأصنام ﴾ رب إتهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴿<sup>(١)</sup>، فهذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأئمة المسلمة التي بعث فيها محمد ﷺ إلا من ذرية إبراهيم، لقوله: ﴿ واجنبي وبنّي أن نعبد الأصنام ﴾<sup>(٢)</sup>.

وبما ذكرنا في حقيقة الاجتباء وما يلزمه تبين أنّ قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾<sup>(٣)</sup>.

وبما ذكرنا في حقيقة الاجتباء وما يلزمه تبين أنّ قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليطالعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ ليس في مقام تخصيص الاطلاع على الغيب بالرسول، بل ذكر الرسل ممّا اقتضاه الحال وظرف الخطاب. وقد وردت عن طريقنا روايات في أنّ المراد بالمجتبين والشهداء في هذه الآية هم أئمة أهل البيت عليهم السلام.

منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن بريد العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾، قال: نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه. قلت: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا

(١) إبراهيم: ٣٥-٣٦.

(٢) العراشي، محمد بن مسعود، تفسير العراشي، ج ١ / ص ٧٩-٨٠ / ح ١٠١.

(٣) آل عمران: ١٧٩.

رَبِّكُمْ وَاَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴿٢﴾ قَالَ: إِنَّا نَعْنِي، وَنَحْنُ الْمَجْتَبُونَ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدِّينِ «مَنْ حَرَجَ»، فَالْحَرَجُ أَشَدُّ مِنَ الضِّيقِ «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» إِنَّا نَعْنِي خَاصَّةً وَ﴿سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُ سَمَّاَنَا الْمُسْلِمِينَ (مَنْ قَبِلَ) فِي الْكُتُبِ الَّتِي مَضَتْ (وَفِي هَذَا) الْقُرْآنَ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الشَّهِيدُ عَلَيْنَا بِمَا بَلَّغْنَا عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَحْنُ الشُّهُدَاءُ عَلَى النَّاسِ، فَمَنْ صَدَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقْنَا، وَمَنْ كَذَبَ كَذَّبْنَا (٢).

ومنها: ما رواه الصدوق في «كمال الدين» بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد أيام خلافة عثمان: انشدكم الله، أن تعلمون أن الله عز وجل أنزل في سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ - إلى آخر السورة - فقام سلمان فقال: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم؟

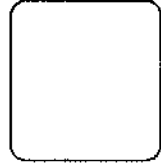
فقال (عليه السلام): عنى بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصة دون هذه الأمة، قال سلمان: بينهم لنا يا رسول الله، قال (عليه السلام): أنا وأخي وأحد عشر من ولدي، قالوا: اللهم نعم (٣).

(١) الحج: ٧٧-٧٨.

(٢) أنكليزي، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢٤٧ / ح ٤، وقد مر بسند آخر في الفصل السابق ص ١٥٦.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين، ص ٢٧٨-٢٧٩، نور الثقلين، ج ٣ / ص ٥٢٦، الرقم ٢٤٤.





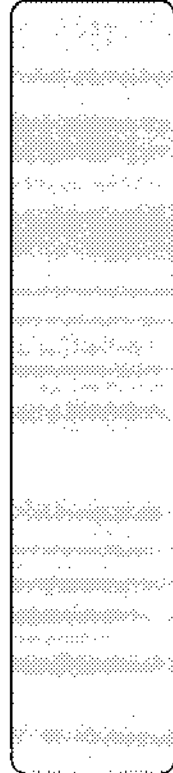
## الفصل الرابع عشر

### رقابة الولاة

#### آية رؤية الأعمال

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ  
وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(التوبة: ١٠٥)





وفي سياق الآيتين السابقتين تأتي آية رؤية الأعمال لتؤكد ما أفادناه من شهادة الأئمة على أعمال الناس وبالنحو الذي يعكس خصوصية مؤكدة من خصائص الإمامة من وجهة نظر القرآن الكريم.

الرؤية: هي إدراك المرئي بالعين أو بالقلب، قال في القاموس: «الرؤية: النظر بالعين وبالقلب»<sup>(١)</sup>.

وقال الراغب في «المفردات»: «الرؤية: ادراك المرئي، وذلك بحسب قوى النفس والأول بالحاسة وما يجرى مسجراها...، والثاني بالوهم والتخيل... والثالث بالتفكير...، والرابع بالعقل...»<sup>(٢)</sup> ثم ذكر أمثلة لكل واحد منها.

والسين في (سترّدون) وإن كان حرف استقبال يستعمل لما يتوقع تحققه فيما بعد إلا أنه يستعمل تحقيقاً لمدخله وتأكيده، كما نقل ذلك ابن هشام عن الزمخشري وأيده فيه<sup>(٣)</sup>.

والخطاب في الآية عامّ يشمل كل إنسان عامل، ولا يختص بالتائبين

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط: ص ١٦٥٨.

(٢) الراغب الاصفهاني، الحسين بن حميد، المفردات: ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) الأنصاري، عبدالله بن هشام، معني اللبيب: ج ١ / ص ٢٣٢.

المذكورين في الآية السابقة عليها وان كانوا مورداً لها. لأن خصوص المورد لا يختص الوارد كما يقال. كما لا يختص بالمؤمنين وان كانوا أولى من غيرهم بالخطاب، بل وان كان الخطاب متوجهاً اليهم بالفعل - لأن القرآن نزل بإيادنا أعني واسمعي يا جارة كما قيل - ومز بنا سابقاً، خاصة وأن الآية في مقام التحريض على العمل والترغيب في الاستزادة منه، ببيان أن ذلك مرثي مشهود، فتكون تلك المشاهدة بنفسها نوعاً من التشجيع على العمل والتحذير من الإهمال. خاصة وأن الشاهد الناظر هو الله سبحانه والرسول ﷺ وصفوة المؤمنين.

ولاشك أن الرؤية المقصودة تتحقق قبل يوم البعث والقيامة لقوله تعالى: ﴿وَمُتَرَدِّدِينَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وظاهر الآية أنها في سياق بيان خصوصية لرسول والمؤمنين بحيث يرون الأعمال كما يراها الله سبحانه، وهذا ما يتفحصنا في تحديد نوع الرؤية، وهل هي رؤية حقيقة العمل أم ظاهره أم نتيجته؟ فإن رؤية نتيجة العمل أو ظاهره فقط أمر مشهود لكل ذي عين حتى من غير المؤمنين. فمثل هذه الرؤية لا تتناسب مع سياق الآية المقتضي وجود خصوصية في رؤية الرسول والمؤمنين. وحينئذ لا بد أن تكون الرؤية المقصودة هي رؤية نفس العمل وحقيقته بما في ذلك المنطلقات القلبية والنوايا المؤثرة في تكوين هذه الحقيقة، خلافاً لما قيل من أن المقصود رؤية



نتيجة العمل، ولما يفهم من كلام سيد قطب في «الظلال» من كون المراد هو «العمل الظاهر يراه الله ورسوله والمؤمنون»<sup>(١)</sup>.

فالمعنى - والله أعلم - : يا أيها النبي قل للناس اعملوا ما شئتم ولكن عليكم أن تعلموا بأن الله يرى أعمالكم وأنكم بمنظر منه ومسمع، فيجازيكم بها يوم القيامة حين تردون إليه، وإضافة إلى ذلك هناك ناظر آخر هو الرسول ﷺ، وكذلك المؤمنون المصطفون شهداء ناظرون إليكم، فعليكم بالدقة والاحتراز والانطلاق نحو الأعمال الصالحة.

كل ذلك من أجل التحفيز الشديد نحو العمل الصالح، لأن الإحساس بالستر والخفاء يوجد عند الإنسان شعوراً بالاسترخاء والتفاعس، فإذا رفعنا ذلك الإحساس منه وقلنا له بأنك تعيش وتسير تحت مراقبة نوعية وشديدة بحيث إن المراقب فيها هو الله والرسول والمؤمنون أمكننا إحلال النشاط فيه محل التفاعس.

ولا كلام لنا في أن الله تعالى مطلع على القلوب والنوايا فضلاً عن حركات الجوارح ومظاهر الأعمال، إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إنما الكلام في رؤية الرسول والمؤمنين، وقد تبين فيما سبق أنها رؤية لحقيقة العمل لا لظاهره ونتيجته فقط، والآن نتساءل عن وسيلة الرؤية التي

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ج ٤ / ص ٣٠٢.

تجعلهم يتمشعون بذلك دون سائر الناس؟ فإن كانت الوسيلة هي العين الطبيعية الموجودة لدى كل إنسان، فرؤية هذه العين مختلفة عن رؤية الله سبحانه، بينما يقتضي اقترانهما في الآية نوعاً من الاتحاد بينهما، أضف إلى ذلك أن الرؤية البصرية الاعتيادية أمر مشترك بين الرسول والمؤمنين وسائر الناس حتى الكفار والمنافقين، بينما يدل السياق على نوع من الخصوصية في رؤية الرسول والمؤمنين بحيث يصح الامتنان بها عليهم، فلا بد وأن تكون الرؤية رؤية استثنائية مختلفة نوعياً عن الرؤية البصرية الاعتيادية. ولا بد أن تكون هذه الرؤية من نوع خاص بحيث تنفذ إلى حقيقة العمل ومنطلقاته القلبية وما ينبعث عنه من نوايا ونوازع نفسية. ومما لا شك فيه أن هذه الخصوصية لا تحصل لجميع المؤمنين. وحينئذ فلا يمكن أن يكون المقصود بالمؤمنين المذكورين في الآية عامة الأفراد الحاملين لهذا العنوان، ولا بد أن يكون المقصود بهم أفراداً معينين معلومين، وحينئذ تكون الألف واللام في (المؤمنون) عهدية لا جنسية، وتكون رؤية هؤلاء المؤمنين المعهودين لأعمال العباد بنوع من الاشراف والاطلاع على حقائق النفوس كرشحة أفاضها الله سبحانه عليهم مما عنده من الاطلاع المطلق على ذلك، وإلى ذلك تشير روايات كثيرة جداً وردت في عرض الأعمال على رسوله الله ﷺ وعلى الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد ورد جلها في تفسير هذه الآية، فيكون المقصود

بالمؤمنين هم الأئمة عليهم السلام.

فآية تدل على أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام يرون كل ما يعمله العباد عبر الإشراف والاطّلاع على حقائق النفوس والأعمال.

ثم إن انتساب الرؤية الى الله سبحانه يجعلها حاوية على الصفات التي تحظى بها أعماله سبحانه، كالخلو من عنصر الزمان، فهي رؤية لازمان لها، وهذا يعني أنّ أعمال العباد واقعة تحت نظر الله سبحانه قبل صدورها وحين صدورها وبعد صدورها، وهي حاضرة لديه في كل مرتبة من مراتب حصولها وظهورها.

وقد يقال: بأنّ حرف السين في قوله: ﴿فسيرى الله عملكم﴾ يدل على أنّ الرؤية محصورة في مرحلة البقاء والاستمرار، دون ما قبلها من مراحل، كمرحلة الصدور، وكأنّها تريد أن تدفع وهم من يتوهم بأنّ الأعمال زائلة فانية، فجاءت السين في الآية لبيان بقاء الأعمال واستمرارها بدلالة خضوعها لنظر الله ورؤيته، وبذلك تفترق آية رؤية الأعمال عن آية الشهادة، بأنّ الأولى ناظرة الى مرحلة ما بعد صدور العمل، والثانية ناظرة الى مرحلة ما قبل صدور العمل الى حين صدوره، والملاحظ أنّ روايات عرض الأعمال تنطبق على هذا الوجه من الآية بنحو أوضح من انطباقها على غيره.

فقد روى الكليني عن عدّة من أصحابنا مسنداً عن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون ﴿ قال: هم الأنسة (١).

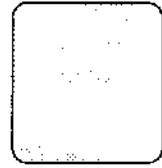
وروي عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ما لكم تسوون رسول الله ﷺ؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه؟ فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك فلا تسووا رسول الله ﷺ وسروه (٢).

وروي أيضاً عن عبد الله بن أبيان الزيات - وكان مكيناً عند الرضا عليه السلام - قال: قلت للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: «أولست أفعل؟ والله إن أعمالكم لتعرض عليّ في كل يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عز وجل؟» وقال اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴿ قال: هو والله عليّ بن أبي طالب عليه السلام (٣).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢١٩ / ح ٢.

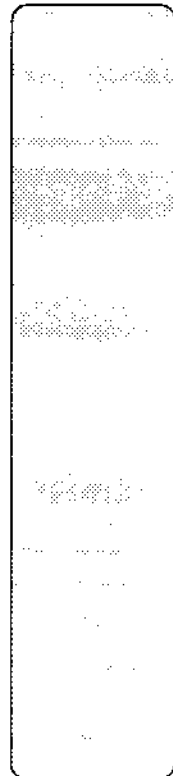
(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١ / ص ٢١٩ / ح ٢.

(٣) المصدر السابق، ج ٤.



## الفصل الخامس عشر

### استخلاصات ونتائج





ومن المناسب أن نستخلص للقارئ الكريم - وهو في نهاية مطافه حول بحوث الكتاب وفصوله - رؤية شاملة نختصر له فيها ما توصلنا إليه من النتائج. وأهم هذه النتائج أن ولاية الأنمة ﷺ حقيقة قرآنية مؤكدة تظافرت عليها آيات قرآنية عديدة، منها الآيات التي تناولها هذا الكتاب بالدرس والتحليل والتفسير، وأن هذه الحقيقة ذات أبعاد وخصوصيات متعددة كالعلم الحضوري والعصمة والشهادة على أعمال الخلق.

هذه هي النتيجة النهائية للكتاب المستفادة من فصوله وبحوثه. والغرض من هذه النتيجة هو الرد على ما قيل أو يقال من أن الولاية مفهوم أوجده علماء مذهب معين وأنه لا يستند إلى أساس قرآني، وقد تبين أنه مفهوم قرآني مؤكد. فضلاً عما يستند إليه من زخم حديثي روائي صحيح واسع النطاق في مصادر المسلمين جميعاً، ومن الفرق الإسلامية كافة.

أما النتائج لفصول الكتاب فيمكننا بيانها بالعرض التالي:

### نتائج البحث في آية الخلافة

- ١- إن الخلافة جعل إلهي لا دخل للبشر فيه.
- ٢- إنها خلافة مطلقة لا تختص بجهة دون أخرى.
- ٣- إن الملاك في هذه الخلافة هو العلم بالمستخلف بأسماء الله الحسنی وصفاته العليا ليتمكن الخليفة من التعبير عنها والسير في خطاها.

وبالمخلوقات التي جعل خليفة عليها حتى يتمكن من تدبير أمرها وادارة شؤونها.

٤- إن الخلافة لا تنحصر في شخص آدم ﷺ وذلك بدلالة اعتراض الملائكة بسفك الدماء. كما أنها لا تشمل المفسدين بل تختص بالصالحين ممن حظي بعلم الاسماء.

٥- إن الغاية من خلق البشر في كل زمان إنما هو وجود ذلك الخليفة الممثل لغاية الكمال الانساني، أما غيره فأتباع منقادون لحكمه وقيادته.

### نتائج البحث في آية الإمامة

١- إن الإمامة المزعومة لشيخ الأنبياء ابراهيم عليه السلام لم تكن مقاماً معنوياً قريباً. وإنما هو موقع قيادي اجتماعياً وسياسياً.

٢- إنه منح هذا المقام الرفيع بعد انتخابه للنبوذة والرسالة، وبعد أن تخطى امتحانات عديدة كبرى، مما يدل على أنه كان مقاماً رفيعاً لا يرتبط بالشرعية التي كانت قد اعطيت له قبل ذلك. بل هو راجع الى الهداية الحقّة التي تصل وتؤثر في كل من يستعد لها تكوينياً.

٣- إن الإمامة وبوصفها عهداً إليها لا يمكن أن يصل إليها ظالم مطلقاً ولو كان ظالماً لنفسه، لصدق الظلم عليه حينئذ. وهذه هي العصمة.

٤- إن الإمامة عهد إلهي، يهبه الله تعالى لمن يختاره ويصطفيه من عباده الأشرفين؛ وليس أمراً تركه الله تعالى للناس حتى يختاروا وينتجوا صاحبه.

٥- إن عنوان الإمامة يقتضي بنفسه أن يكون قول وفعل وتقرير الإمام



حجة على الناس، فتجب عليهم طاعته. بخلاف عنوان النبوة الذي يقتضي طاعة الأحكام الإلهية ولا يقتضي بنفسه طاعة النبي. إلا أن يأتي دليل في نفس الأحكام الإلهية يأمر بطاعته.

٦- إن اتصاف الإمام بالهداية التكوينية يستلزم اطلاعه على مجاري تدلك الهداية ومساراتها في النفوس والسرائر.

### نتائج البحث في آية اولي الأمر

١- إن لرسول ﷺ مقامين: مقام الرسالة الذي يعني كونه واسطة في ابلاغ الوحي الى الناس. ومقام القيادة وولاية الأمر والحكومة على الناس. وكما يجب على الناس طاعة الوحي والأحكام الإلهية المبلغة إليهم يجب عليهم أيضاً طاعة الرسول في مقام زعامته وحكومته في كل ما يأمر به وينهى عنه.

٢- إن اقتران طاعته بطاعة الله من جهة واطلاق الأمر بطاعة الرسول من جهة ثانية يكشف عن عصمته في مقام زعامته وولايته فضلاً عن عصمته الثابتة في مقام نبوته ورسالته بأدلة أخرى.

٣- إن اطاعة اولي الأمر هي امتداد زعامة الرسول وحكومته. ولذا كانت طاعة الرسول وطاعة اولي الأمر واحدة في الآية ﴿وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

٤- إن الظاهر من عنوان ﴿اولي الأمر﴾ أنه عنوان مستمر يدخل في كل زمان ولا ينحصر بزمان دون آخر، فلا يوجد زمان يخلو منهم.

٥- إن المراد بأولي الأمر أفراد معينون معصومون. فلا ينطبق هذا العنوان على أهل الحل والعقد من الأمة ولا على الهيئات الاجتماعية

والسياسية المشابهة.

٦- إن مرجعية أولي الأمر لا تختص بالمجالات الإدارية والتنفيذية والسياسية، بل تشمل المجال التشريعي أيضاً، بمعنى أنهم يمتلكون مؤهلات كافية تسمح لهم بالكشف عن الإمتدادات التشريعية التي تحتاجها العصور التالية لعصر النبي ﷺ على أساس القرآن والسنة النبوية.

### نتائج البحث في آية الولاية

١- إن مفهوم الولاية دالّ في جميع موارد استعماله على القرب والدنو بنحو يقتضي الاتصال والتأثير بين طرفين، ويستلزم التصرف والتدبير، أو المحبة، أو التسلط، ولذا فإن لفظة «الولاية» ليست من الالفاظ المشتركة التي يكون استعمالها في مورد مخالفاً تماماً لاستعمالها في مورد آخر.

٢- إن الركوع هو الانحناء، وقد استعمل في الخضوع والتذلل بنحو مجازي.

٣- إن الله سبحانه هو ولي المؤمنين أصالة، ومن الطبيعي أن تنتقل هذه الولاية منه تعالى إلى الرسول ﷺ، وقد صرحت الآية بانتقالها بعد الرسول إلى الذين يتصفون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أثناء الركوع، وهم غير المخاطبين الذين هم الموتى عليهم.

٤- إن انطلاق الولاية من الله ثم انتقالها من الرسول إلى من يحملون تلك الأوصاف يدل على أنّ الولاية المقصودة ليست ولاية النصرة ولا المحبة ولا المعاني الأخرى. وإنما هي ولاية التدبير والتصرف.

٥- إن انطباق عنوان «الذين آمنوا...» على أمير المؤمنين ﷺ بالنحو الذي

دلّت عليه روايات الفريقين ليس من باب استعمال لفظ الجمع في المفرد، وإنما من باب انطباق العنوان على مصداقه ومعنونه الذي قد تسمح الناحية النظرية والمفهومية بتعدده. ولكن الواقع الخارجي لم يحصل فيه إلا فرد واحد.

٦- إن هذه النتائج المستفادة من الآية لا ترتبط بالآية السابقة عليها، ولذا فهي لا تتأثر ولا تتغير سواء قلنا بوحدة السياق بين الآيتين أو أنكرنا ذلك.

٧- إن الإمام علياً عليه السلام قد احتج مراراً بهذه الآية على أحقيته بالخلافة من

غيره.

### نتائج البحث في آية التبليغ

١- إن الآية وإن لم تصرح بالحكم الذي تريد من النبي ﷺ تبليغه للناس إلا أنها أشارت إلى خصائص من شأنها أن تحدد لنا وبوضوح الحكم المطلوب تبليغه.

٢- إن خصائص ذلك الحكم هي:

أ- إن ذلك الحكم قد بلغ إلى النبي ﷺ في زمان سابق إلا أن النبي تروث في تبليغه منتظراً سnoch الفرصة المناسبة.

ب- إن تروث النبي ﷺ سببه الخوف من افتراق كلمة المسلمين وظهور المنازعات والأحقاد بينهم، وظهور الاعتراض من شريحة لها شأن وتأثير بحيث يخشى النبي تأثيرها السلبي ويحسب للأمر حسابه بحيث يحتاج إلى نصررة الوحي وعصمته من الناس.

ج- إن الحكم المطلوب تبليغه من نوع خاص بحيث إذا لم يبلغ إلى الناس

فكأنما لم يقم النبي ﷺ بتبليغ الرسالة الإسلامية كلها.

٣- إننا إذا استعرضنا الأحكام واستقرأنا التشريعات الإسلامية لانجد في تأريخ الوحي النازل على النبي ﷺ حكماً يحمل هذه الخصائص. بل لانجد موضوعاً له هذه الخصائص إلا أن يكون ذلك الموضوع هو مسألة من يخفف النبي ﷺ بعد وفاته، فهي مسألة تشير الاختلاف والابتعاد بين المسلمين، وتستحق من النبي التريث والتأمل، ويكون عدم التبليغ فيها بمثابة عدم تبليغ أصل الرسالة، وذلك لارتباط مستقبل الرسالة ومصيرها بمسألة الخلافة، وحينئذ فلا بد أن يكون الحكم المطلوب من النبي تبليغه إلى الناس حكماً يتناول هذا الموضوع، وليس في مصادر المسلمين قول بذلك سوى ما قالته الشيعة من أن الآية نزلت في أمر الولاية والإمامة مستعينة في ذلك بروايات كثيرة جداً نقلت في مصادر المدرستين معاً.

### نتائج البحث في آية الإكمال

- ١- إن الآية منفصلة عن الآية السابقة عليها، ولا ترتبط معها بسياق واحد.
- ٢- إن المراد من اليوم الذي ينس فيه الكفار وكمل فيه الدين هو يوم الغدير الأغر.
- ٣- إن علة يأس الكفار وأساس كمال الدين في ذلك اليوم هو تأسيس نظام الإمامة الذي يضمن مصير الرسالة ومستقبلها، ويجعلها رسالة فاعلة متحركة في الأزمنة اللاحقة لزمان النبي ﷺ.

٤- إن المراد بالنعمة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ هو ولاية أهل البيت عليهم السلام.

٥- إن الروايات المنقولة بطرق الفريقين قد برهنت على صحة هذه النتائج.

### نتائج البحث في آية علم الكتاب

١- إن غرض الآية هو تعزيز موقف النبي صلى الله عليه وآله في المواجهة الشديدة التي كان يخوضها مع المنكرين لرسالته، واعانته على ابطال تأثيراتهم ومحاولاتهم التشكيكية. وذلك بالاعلان عن شهادتين عظيمتين تؤيدان رسالته وتغنيانه عن شهادة الآخرين له، وتقتلان من أهمية انكار المنكرين. وهما شهادة الله سبحانه وشهادة من عنده علم الكتاب.

٢- إن بإمكاننا التوصل الى هوية وخصائص صاحب الشهادة الثانية - من عنده علم الكتاب - من خلال آية ﴿وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به...﴾ فإذا كان الذي عنده شيء من علم الكتاب يحظى بكرامة وعمل اعجازي كبير كالذي نتحدث عنه هذه الآية فلا بد أن الذي عنده علم الكتاب كله وهو صاحب الشهادة الثانية له شأن أعظم من ذلك. ولذا كانت شهادته بصدق الرسالة المحمدية مما يعزز قلب النبي صلى الله عليه وآله وموقفه من التحديات المعادية ومما يقرن بشهادة الله سبحانه.

٣- وقد وردت روايات كثيرة من الفريقين تدل على أن صاحب الشهادة الثانية هو أمير المؤمنين عليه السلام.

### نتائج البحث في آية البيّنة

١- إنّ الشاهد المذكور في الآية لا بدّ أن يكون ممّن ينتسب الى الرسول ويكون تالياً له وبمنزلة نفسه ﷺ.

٢- إنّ الشهادة المذكورة هنا لا بدّ أن تكون عن تحمّل مسبق لها، والتحمّل المسبق لها يقتضي الحضور والمشاهدة لحقيقة النبوة وللوحي النازل، وإلا لا تكون الشهادة ذات معنى.

٣- إنّ الشاهد لا بدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ والنسيان لكي يقطع بصحة الشهادة.

٤- بالجمع بين هذه الآية وآية علم الكتاب نتوصل الى أنّ الشاهد المذكور هنا هو نفسه الموصوف بعلم الكتاب في تلك الآية، والذي دلّت الروايات من الفريقين على أنّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

### نتائج البحث في آية المباهلة

١- منزلة أهل البيت ﷺ وفضيلتهم وهم عليّ والحسن والحسين وفاطمة، وأنهم خاصّة النبيّ وأحبّ الخلق لديه وأعزّ الناس عليه، وأنّ عنوان «نفس النبيّ» ينطبق على عليّ عليه السلام كما صرح به الرسول ﷺ في الأخبار واحتجّ به الإمام عليه السلام يوم الشورى.

٢- إنّ المشاركين للنبيّ ﷺ في المباهلة وهم أهل البيت ﷺ لا بدّ وأن يكون لهم شأن وموقع في الرسالة، لأنّ اشراك النبيّ لهم في هذا الموقع الخطير

يدل على أنهم يشاركونه في أمر الرسالة بحيث يحضرهم معه في مثل هذه الحادثة الخطيرة. وما ذلك إلا بالولاية والإمامة التي بها يكمل الدين وتتم النعمة.

### نتائج البحث في آية التطهير

١- إن الإرادة الإلهية على نوعين: تشريعية يمكن للمراد منها أن يتخلف. وتكوينية تتصف بحتمية التحقق وعدم امكانية تخلف المراد عن الإرادة. إن الإرادة التشريعية في مجال التطهير من الذنوب والآثام إرادة عامة شاملة لكل البشر. إذ إن الله يريد الطهارة من الذنوب لجميع أفراد البشر. وحيث إن الآية في سياق بيان خصوصية ومنة الله على أفراد معينين فلا بد وأن تكون إرادة التطهير المذكورة إرادة من نوع آخر، وما تلك إلا الإرادة التكوينية.

٢- إن عنوان «أهل البيت» لا يشمل نساء النبي ﷺ لأن القصر المذكور في الآية ليس قصر قلب، وذلك لأن الضمير في هذا المقطع من الآية مذكر دون المقطع السابق الخاص بنساء النبي حيث جاء الضمير فيه مؤنثاً، مما يدل على انفصال هذا المقطع عن مقطع نساء النبي من الآية.

٣- وقد وردت روايات جمّة من الفريقين تدل على نزول الآية في شأن أهل البيت.

### نتائج البحث في آية المودة

١- إن من سنن الرسالات والنبوات أن الانبياء لا يطلبون الأجر من الناس،

كتأكيد منهم على عدم وجود غرض دنيوي فيما يقومون به من الدعوة إلى التوحيد، وحتى لا تكون هناك أرضية تساعد على التشكيك في صدق الأنبياء عليهم السلام.

٢- إن هذه السنة ثابتة لا استثناء فيها.

٣- إن آية المودة ليست استثناءً من تلك السنة، لأن الأجر المذكور فيها ليس أجراً حقيقياً، وإنما هو موقف رسالي مبدئي طالب به النبي صلى الله عليه وآله أمته كضمان لاستقامة الأمة ومستقبل الرسالة، وإن توصيف هذا المطلب بالأجر جاء من أجل الباسه لباس المطلب الوجداني والخطاب العاطفي الذي يوجهه الرؤساء للأمم كاسلوب من أساليب التأكيد عليه، فكأن الرسول صلى الله عليه وآله يريد أن يقول: إن كنتم تعترفون لي بحقوق عبيكم فإن الحق الذي أريد استيفاءه منكم هو أن تستقيموا على هذه الجادة، ولن تستقيموا إلا بمودة أهل البيت عليهم السلام، ولذا فإن مودتهم حق مؤكد عليكم من الله ومني.

٤- قد دلت الروايات الكثيرة المرورية بطرق الفريقين على أن القرين المقصودين هم أهل البيت عليهم السلام.

### نتائج البحث في آية الشهادة

١- إن الله سبحانه قد من على المؤمنين إذ جعلهم أمة وسطاً باعتدالها التام وابتعادها الكامل عن الإفراط والتفريط.

٢- إن الغرض من هذا الجعل والامتنان هو الوصول بهم إلى مستوى الشهادة على الناس وشهادة الرسول عليهم.



٣- إن الشهادة على الناس لا بد وأن تتقوم بحضور مسبق ومشاهدة سابقة لوقائع الأعمال وحقائقها.

٤- إن الشهيد على أعمال الناس لا يستطيع أن يقيم تلك الأعمال ويصفها بالشر أو الخير ما لم تستوي الشهادة لديه إلى حد الاطلاع على النوايا والسرائر.

٥- إن مثل هذه الشهادة لا يمكن أن تحصل لجميع أفراد الأمة الإسلامية، لأنها تتطلب منزلة خاصة ودرجة قربية رفيعة، فلا بد أن يكون الغرض من وصف الأمة بالشهادة هو أن هذه الشهادة موجودة في هذه الأمة، أي أن في هذه الأمة من سيصل إلى مستوى الشهادة على أعمال الناس.

٦- إن الشهداء الذين سيحوزون هذه المرتبة لا بد وأن يكونوا قد بلغوا درجة العصمة، وذلك بحكم اطلاق الوسطية المجعولة.

٧- إن هؤلاء الشهداء مطلعون على نوايا وضمائر الناس، وهذا شيء من علم الغيب الذي يعطيه الله لمن ارتضاه من عباده.

٨- إن هؤلاء الشهداء يمثلون واسطة الفيض الإلهي والولاية التكوينية بحكم ما يتمتعون به من العلم الحضورى، كما برهن في محله.

٩- إن الحياة الإنسانية لا تخلو من وجودهم. فلا بد من شاهد منهم يشهد هذه الحياة بكل عصورها وأزمنتها، فلا يخوع عصر من شهادة لشاهد منهم.

### نتائج البحث في آية الاجتباء

١- إن الله اجتبى هذه الأمة، ثم جعلها شاهدة على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليها، فامتنت عليها بالاجتباء وبالشهادة على الناس وبشهادة الرسول ﷺ عليها.

٢- إن هذا الاجتباء يلازم الإسلام بأعلى مراتبه والتسليم بأرقى درجاته. بدليل ربط الآية بين هذا الإسلام وبين إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾، ومعلوم أن إبراهيم الخليل عليه السلام يوم كان نبياً خليلاً لله طنب من الله سبحانه أن يهبه وابنه اسماعيل مرتبة التسليم، مما يدل على أنه يطلب مقاماً شامخاً ومرتبة عظيمة وهي المرتبة القصوى من الإسلام.

٣- ومما سبق يتضح أن الاجتباء كان خاصاً بمن بلغ رتبة التسليم الإبراهيمي.

٤- إن الشهادة مترتبة على الاجتباء، ولذا فإن المقصود بالاجتباء يتمتعون بصفة الشهادة على أعمال الناس بما في ذلك النوايا والمنطقات القلبية.

### نتائج البحث في آية رؤية الأعمال

١- إن أعمال الناس تخضع لمشاهدة الله سبحانه ورسوله عليه السلام والمؤمنين المصطفين.

٢- إن هذه المشاهدة تتم قبل يوم القيامة.

٣- إن الرؤية المقصودة ليست الرؤية البصرية الاعتيادية، لأن هذه الرؤية لا يصح ذكرها تخصيصاً للرسول والمؤمنين.

٤- لا بد أن تكون الرؤية المقصودة من النوع المشتمل على اشراف وإطلاع على الحقائق والخفايا.

٥- إن هذه الرؤية لا تتوفر لجميع المؤمنين، فلا بد من أن يكون المقصود برؤية المؤمنين رؤية بعض منهم حظي بمنزلة رفيعة، بحيث تكون رؤيتهم

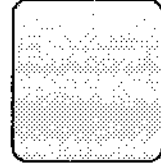
مقارنة لرؤية الرسول ﷺ.

٦- وهذا هو المستفاد من روايات عرض الأعمال على الرسول ﷺ وعلى الأئمة المعصومين التي وردت في تفسير الآية الشريفة.

### الخلاصة

- إذا أردنا أن نجمع كل هذه النتائج القرآنية في نقاط أخيرة، فهي كالتالي:
- ١- إن الإمامة ليست مقاماً عبودياً، وإنما موقع قيادي وتشريعي أيضاً.
  - ٢- إنها تحتاج الى جعل إلهي، ولا مدخلة لاختيار الناس فيها.
  - ٣- إنها تمثل غاية الكمال الإنساني.
  - ٤- إنها تحتاج الى العصمة من الخطأ والنسيان والذنوب.
  - ٥- إن من خصائصها العلم بالاسماء وعلم الكتاب والعلم الشهودي الحضورى.
  - ٦- إن الأئمة شهداء على الناس. يرون أعمالهم ويشهدون نواياهم وسرائرهم.
  - ٧- إنهم هم الأمة الوسط، والأفراد الذين اجتباهم الله شهداء على الناس، والرسول شهيد عليهم.
  - ٨- إن الحياة الإنسانية لا تخلو في دور من الأدوار من شهادة واحد منهم عليها.
  - ٩- إنهم واسطة الفيض الإلهي، وأنهم يتمتعون بالولاية التكوينية.
  - ١٠- إن لأهل البيت مدخلة في الرسالة، وبقية الأمة أتباع لها ولهم.
  - ١١- إن الإمام هو الذي عنده علم الكتاب، وإن منزلته أعلى من منزلة من

- كان ﴿عنده علم من الكتاب﴾ الذي حظي بتلك الكرامة والمعجزة المعروفة.
- ١٢- إن الإمامة اكمال للدين، وأنها هي النعمة، وهي الإتمام للنعمة. وإن الرسالة لا تتم بدونها، ولا تستقيم الأمة بغيرها.
- ١٣- إن الإمام هو نفس الرسول، وأن طاعتها واحدة.
- ١٤- إن الأئمة هم أولو الأمر لهذه الأمة.
- ١٥- إن الأئمة قيادة سياسية ومرجع تشريعي بعد الرسول ﷺ.
- هذه هي خلاصة النتائج القرآنية التي توصلنا إليها عبر بحوث هذا الكتاب وفصوله. وهي الأسس العريضة والعلامات الشاحصة لنظرية الولاية والإمامة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ونحن إذ نعرض هذه النتائج على ذوي الرأي الحز والفكر المستقيم إنما نريد أن نؤكد على قرآنية هذه النتائج رداً على زعم الزاعمين بأن ما يقوله أتباع أهل البيت عليهم السلام عن أئمتهم لا يحظى بأساس قرآني. والحمد لله أولاً وآخراً.

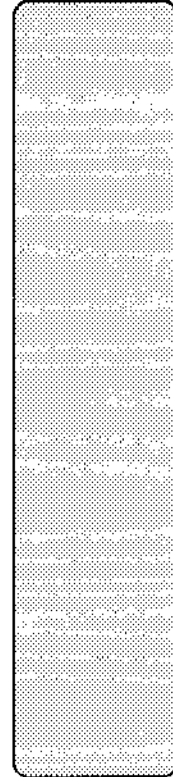


**الخاتمة**

**بحث موجز في بعض خصوصيات الإمامة**

- العلم بالغيب

- العصمة





ونحن في نهاية المطاف من الكتاب نشعر بضرورة اشباع البحث في خصوصيتين مهمتين من خصوصيات الإمامة، هما: العلم بالغيب، والعصمة، ذلك أننا وإن كنا قد تناولناهما في طيات البحوث السابقة، إلا أن سير البحث كان يقتضي المرور الخاطف بهما.

### أولاً - العلم بالغيب

مر بنا أن من خواص النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام علمهم بأعمال الناس وشهودهم على ما يجري في دخالهم، وذلك كجزء مما حظوا به من فيض العلم الإلهي بالغيب.

وقد يستشكل على هذه الخاصية بعدة اشكالات هي:

١- أنها منافية للآيات الدالة على انحصار العلم بالغيب بالله تعالى، كقوله عز وجل ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾<sup>(٢)</sup>.

ومنافية كذلك للآيات الدالة على عدم علم النبي ﷺ بالغيب، كقوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿ولو كنت أعلم الغيب

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الأحقاف: ٩.

لاستكثرت من الخير<sup>(١)</sup>.

٢- إنها منافية لسيرتهم العملية من التوسل بالأسباب الطبيعية لتحصيل العلم بالأشياء، بل ومشاورة غيرهم في الأمور. كما هو المأمور به في الكتاب العزيز.

٣- عدم امكانية تصحيح ما أقدموا عليه طينة حياتهم من أعمال أظهرت النتائج أنها كانت صادرة عن جهل بالعواقب. كسوق الجيش الى معركة خاسرة، وزج النفس والأهل والأصحاب في قتال فاشل. فلو كانوا عالمين بالنتائج لكان عملهم غير سائغ عقلاً وشرعاً. فلتصحيح سيرتهم شرعاً لا بد من القول بجهلهم بالعواقب.

وللإجابة على هذه الإشكالات لا بد من بيان أمور ثلاثة هي:

١- إن العلم بالغيب يراد به معان هي:

الف: العلم بما غاب عن حواس الانسان وحصل عن طريق البرهان العقلي أو النقل. ففي أوائل سورة البقرة وصف القرآن الكريم المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، الذي يؤمنون به. إذ لا إيمان إلا بعد العلم. ولا بد أن يكون المراد بالغيب الذي علموا به هو ما غاب عن الحواس وتم تحصيله بدليل عقلي كالنوحيد. أو دليل نقلي كأحوال يوم القيامة.

ب: العلم بما غاب عن الحس والعقل معاً وتم التوصل إليه عن طريق النقل خاصة. كالعلم بغلبة الروم على الفرس قبل وقوع المعركة. وذلك عن طريق

(١) لأشرف: ١٨٨.



إخبار القرآن في سورة الروم، وكالعلم بالحوادث التاريخية التي لا يمكن التوصل إليها عبر الأسباب الطبيعية، وقد قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل﴾ (١).

ج: العلم بما لا يستطيع الانسان التوصل إليه بحس ولا عس ولا نقل. فعنوان العلم بالغيب يشمل هذه المعاني الثلاثة. ولا شك في انطباقها عليها معاً، وكل من حصل له أحد المعنيين الأول أو الثاني عدّ عالماً بالغيب دون أن يستتبع ذلك اشكالاً أو تعارضاً مع خصوصية الله سبحانه وتعالى في العلم وانحصار علم الغيب به.

وقد رأينا أن القرآن نفسه قد استعمل وصف العلم بالغيب في الانسان، ذلك أن الله سبحانه قد خص نفسه بالمعنى الثالث من علم الغيب وإن كان المعنى الأول والثاني أيضاً من شؤونه، لاعتمادهما على النقل عن الله سبحانه، ولكن بما أن الله سبحانه قد فتح قناة النقل الى الانسان عبر الكتب السماوية والانبياء وأصبحت بعض علوم الغيب في متناوله وصح وصف الانسان بعلم الغيب لذا بقي المعنى الثالث خاصاً بالله سبحانه، وهو المعنى المقصود في الآيات الدالة على انحصار علم الغيب به. ومن هنا صح وصف الانسان بعلم الغيب بمعنى ما، وصح نفي هذا العلم عنه وحصره بالله بمعنى آخر، ولا يلزم من هذا النفي والاثبات تناقض ولا تعارض، كما إذا اختص الله سبحانه عبداً من عباده بوحي أو إلهام وأطلعه على بعض الحقائق الغيبية، ولعل أميرالمؤمنين عليه السلام

يشير الى ذلك بقوله: «أَتَمَّا هُوَ تَعَلَّمَ مِنْ ذِي عِلْمٍ»<sup>(١)</sup>.

٣- إن العناوين قد تطلق على الانسان - كنفس عنوان الانسان - ويكون الملحوظ فيها مرتبة معينة، وقد تطلق مرة أخرى عليه ويراد بها مرتبة أخرى وهكذا ثالثة ورابعة. فإذا اطلقت وأريد بها مرتبة معينة فهذا لا يعني نفي المراتب الأخرى، وإذا نفيت المرتبة الدانية منه فهذا لا يعني ولا يستلزم نفي المرتبة العالية، والشيء المهم هو أن ثبوت مرتبة لا يستلزم نفي أخرى، ونفي مرتبة لا يستلزم ثبوت أخرى أعلى ولا أدنى.

فقد يطلق عنوان الانسان ويراد به المرتبة الجسدية المادية فقط. مثل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾<sup>(٢)</sup>. وقد يلاحظ فيه المرتبة الروحية فقط دون لحاظ المرتبة البدنية السابقة، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فالآية خطاب للانسان وقد لوحظ فيها جانب الروح فقط لأنه هو الجانب المقصود بالوفاة وهو الجانب الذي يستوفى عبر ملك الموت. وقد يلاحظ مجموع الجانبين. وقد يلاحظ مرة رابعة بجانبه المادي والروحي زائداً الكمالات المعنوية التي حازها، فهذه كلها مراتب متدرجة لعنوان الانسان الذي قد يطلق ويراد به واحدة منها، دون أن تدل هذه الارادة على نفي أو ثبوت المرتبة السابقة أو اللاحقة.

(١) بيح البلاغة: رقم التحليل ١٢٨ / ص ١٨٦.

(٢) الرحمن: ١٤.

(٣) المجدة: ١١.

ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾<sup>(١)</sup> لوحظت المرتبة البشرية الاعتيادية من الرسول ﷺ. وهذا اللحاظ لا يدل على نفي المرتبة الأعلى، ولذا عقبنا الآية بإثبات الوحي للرسول ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾<sup>(٢)</sup> تمت الإشارة إلى المرتبة البدائية من الخلق الفاعلة للهداية الإلهية. ولا يلزم من ذلك انتفاء المرتبة العالية له ﷺ.

وبهذا الأسلوب يمكن حل التعارض الظاهري بين طوائف الآيات والروايات المتحدثة عن قضايا من هذا القبيل كقضية عدم الغيب الشئ وجدنا لها مراتب عديدة، فإذا اطلق هذا العنوان وأريد به مرتبة معينة فهذا لا يعني انتفاء المرتبة الأعلى ولا ثبوت المرتبة الأدنى، فقد ثبتت المرتبة الأعلى بدليل آخر.

٣- إن العلم إما حضوري يتعلق بعين المعلوم بلا واسطة كعلم الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله. وإما حصولي ناشئ من الصور الحاصلة في القوة المدركة كعلمنا بالأعيان الخارجية والأمور الاعتبارية بواسطة الصور والمفاهيم. والعلم الحضوري بالنسبة للإنسان هو علمه بنفسه وقواه وأفعاله وانفعالاته. كما أن علمه الحصولي يحصل له بتأثير من الخارج فيه عبر الحواس الظاهرة والباطنة التي تعمل كأنوافذ المنفتحة على الخارج لتمتقط صور الأشياء وتعكسها على القوى الإدراكية، ثم يقوم الذهن بفعالية ايجابية من شأنها الاستنتاج وتحصيل علم حصولي جديد. وهذا لا يتنافى مع كون نفس المفاهيم

(١) كآية: ١١٠.

(٢) لضحى: ٧.

والصور العممية معلومة للنفس بالعلم الحضورى، فإنها من هذه الحيشية تكون من أفعالها أو انفعالاتها.

حيثد يمكننا أن ننظر للانسان من عدة زوايا ونطلق عليه أحكاماً مختلفة لكتنها غير متعارضة. فبحسب النظر المتعارف هذه العنوم هي العلوم التي تعد عموماً انسانية. وبحسب منظار آخر هو المنظار الرابط بين الانسان والخائق يصبح هذا الانسان فاقداً لأى كمال وجودى من علم وقدرة، وكل ما عنده هبة من الله سبحانه إليه. وبحسب منظار ثالث الى بعض أفراد الانسان ممن ارتقى الى مرتبة عالية في الكمال فوق ما يناله الانسان العادى، فأوتى من عند الله عنماً الهياً مختفياً عن مدارك الناس ومحتجباً تحت أستار الغيب، وأوتى قدرة ربانية عى ما يعجز عنه الانسان الاعتيادى كإحياء الموتى وشفاء المرضى، بل الخلق بإذن الله تعالى.

وإذا افترضنا اجتماع هذه الأحكام الثلاثة في شخص واحد فإنها لاتعد أحكاماً متنافية. لأن كل واحد منها ناظر إلى جهة معينة دون أخرى. كما مررت الاشارة إليه في النقطة الثانية.

فعلم عيسى عليه السلام بما كان الناس يدخرونه في بيوتهم وقدرته على ابراء الأكمه والابرس لا يعد أن بحسب النظر المتعارف - النظر الأول - علماً وقدرة إنسانيين، وهو بحسب النظر الثانى ملك لله سبحانه وتعالى. وبحسب النظر الثالث هي من مقامات عيسى ولوازم درجته الرفيعة عند الله، ولذا كان بإمكانه القول ﴿إني أخلق لكم من الطين كهينه الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابريء الأكمه

والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴿١﴾  
 فبوسعه طبقاً للمنظار الثالث أن ينسب هذه القدرة وهذا العلم الى نفسه، وله أن  
 يقول بحسب النظر الثاني: إني لا أملك شيئاً من العلم والقدرة، وله أن يقول  
 بحسب المنظار الأول: إن لي ما لكم من العلم والقدرة، ولكن يعلمني ربي ما  
 لا يعلمكم، ويقدرني على ما لا تقدرون عليه.

ثم إن العلم قد يتعلق بأمر منتظمة في نظام ضروري من العلل والمعالي بما  
 في ذلك إرادة الانسان واختياره، ومثل هذا العلم لا تأثير له في الارادة لأنه كاشف  
 عن مجموع المراد والارادة المنبثقة عن مبادئها، بخلاف سائر العلوم الحصولية  
 التي تؤثر في ظهور الارادة، سواء حصلت من الاسباب العادية أو غيرها.

بعد بيان هذه الأمور والمقدمات الثلاثة تأتي الى مسألة علم النبي ﷺ  
 والأئمة عليهم السلام بالمغيبات، فإنه قد يراد بهذا العلم، العلم الحضورى، وقد يراد به  
 العلم الحصولى، وعلى كلا الاحتمالين يخلو الأمر من الاشكال، فإذا قلنا أنه علم  
 حضورى كان بلحاظ مقامهم النورى الذي هو فوق وعاء الحركات والتغييرات  
 والتقدمات والتأخرات الزمانية، ووصولهم الى هذا المقام وان كان بلحاظ  
 المادة ووعاء الحركة والحلول في عالم الأجساد البشرية متأخراً زماناً، إلا أنه  
 بحسب المرتبة الوجودية وبلحاظ القوس النزولى متقدّم دهرًا، وهذا أمر لا  
 تسعه الأفهام المنغمرة في الماديات، ولا ينبغي القاؤه اليهم، ويكفي أن  
 الروايات دلت على أن الله سبحانه قد خلق نورهم قبل أن يخلق أي شيء،

وانتقل هذا النور الى صلب آدم ثم مازال ينتقل في أصلاب أبنائه حتى استقر أخيراً في الاجساد التي أصبحت تمثلهم ويشار بها إليهم. وإذا قلنا أنه علم حصولي فيتصور له معنيان:

أحدهما: العلم بالنظام الضروري بما فيه الإرادة ومبائنها. وقد سبق أن مثل هذا العلم لا يكون من مبادئ الإرادة ولا موثراً فيها، بل علم بالعلوم التي تشكل مبادئ الإرادة وبالارادة المنبثقة عنها وبالمراد الذي يحصل بها.

وثانيهما: العلم بالأشياء الجزئية عن طريق الوحي والالهام، وهذا كالعلم العادي يؤثر في الإرادة. لكن مرتبة وجوده أدنى من مرتبة العلم بالنظام الضروري. وهي مرتبة من النفس تتجلى فيها الإرادة:

ولا يرد على شيء من هذه العلوم اشكال اختصاص العلم بالغيب بالله تعالى، لأنها كلها حاصلة بنوع من التعليم المناسب لها من الله سبحانه، وهذا غير العلم بالغيب بالمعنى الثالث المختص بالله سبحانه، وبذا يندفع الاشكال الأول المتعلق بانحصار علم الغيب بالله سبحانه وتعالى.

أما الاشكال الثاني المتعلق بسيرة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام التي جرت على التماس الأسباب الطبيعية للعلم فجوابه يختلف باختلاف نوع العلم الذي ينسب إليهم عليهم السلام. فإذا قلنا أنه علم حضوري أو حصولي من القسم الأول وهو العلم بالنظام الكلي. فجواب هذا الاشكال أن كلاً من هذين العلمين وان كان متعلقاً بالحوادث إلا أنه أتما يتعلق بها بما لها من العلة والشرائط والمعدات:

والتماس الأسباب الطبيعية للعلم يتوافق مع هذه الخصوصية لأنه يتمشى

مع النظام الكوني.

وإذا قلنا بأنّ علمهم ﷺ هو علم حصولي بمعنى الوحي والإلهام، فجواب الاشكال المذكور حينئذ هو أنّ وجوه قناة الوحي والإلهام التي تمدّهم بعلم الغيب لا ينبغي الحاجة إلى القناة الطبيعية للاكتساب العلمي فيمكن الوحي والإلهام مصدرًا لما يعجزون عن اكتسابه من العلوم بالأسباب الطبيعية، ويبقى عليهم التوسل بتلك الأسباب الطبيعية لتحصيل العلوم الأخرى كما يفعل سائر البشر.

أما الجواب على الاشكال الثالث فيختلف كذلك باختلاف نوع العلم المنسوب إلى النبي ﷺ والأئمة ﷺ، فإذا قلنا أنه علم حضوري أو علم حصولي بالنظام الضروري الكوني، فجواب الاشكال أنّ هذين العلمين غير مؤثرين في الإرادة كما مرّ، بمعنى أنّ علم النبي ﷺ أو الإمام المسبق بفشل معركة معينة لا يؤثر في تصميمه ولا يغيّر ارادته في التوجّه نحو هذه المعركة.

وإذا قلنا أنّ علمهم حصولي ناشئ عن الوحي والإلهام، وهو مؤثر في ارادة النبي ﷺ والإمام بحيث يدفعه إلى معركة ناجحة، ويمنعه عن معركة فاشة. فجواب الاشكال أنّ أحداً لم يقل بأنّ كلّ ما عند النبي ﷺ أو الإمام من العلم مصدره وحي والإلهام، وأنّما الذي قناه هو أنّ علومه الغيبية مستفادة من هذا الطريق، والاشكال يتمّ على فرض ثبوت أنهم ألهموا علماً بفشل معركة ما ثمّ أقدموا عليها، ولا طريق لاثبات ذلك إلا بإخبار النبي ﷺ أو الإمام عن هذا العلم المستلهم، وحيث لم يحصل الإخبار فلا مجال لاثبات الاشكال.

وبتعبير آخر: إنّ الوحي والإلهام قناة إلهية قد تزوّد المعصوم ببعض

المعلومات وقد نحجب عنه البعض الآخر، والأشكال الثالث متوقف على اثبات أن هذه القناة قد زوّدت المعصوم بخبر فشل المعركة قبل أوانها ومع ذلك أقدم عليها. ولا طريق لاثبات حصول ذلك الخبر لديه ﷺ. على أن المصالح والمفاسد لا تدرك بنتائجها القريبة. والمعارك لا تقاس بما يظهر في الهزيمة الأولى من هزيمة أو انتصار. فقد تكون الهزيمة القريبة مقدمة لانتصار خالد كبير. وقد تؤذي المصالح الظاهرية إلى مفاسد كبيرة حقيقية. ففشل ثورة أو معركة أقدم عليها النبي ﷺ أو الإمام ﷺ لا يدل على أن المعصوم قد تسبّب في خسارة. وأن علمه المسبق المفترض بهذه النتيجة يعني وقوعه في الإثم. ومن هنا ترى الخسارة والربح والهزيمة والانتصار أموراً تختلف العقول فيها. فما عدّه جماعة خسارة يعدّه آخرون ربحاً. وما اعتبره قوم هزيمة يعدّه آخرون انتصاراً.

### ثانياً - العصمة

ومن الخصائص المطلوبة في الإمامة العصمة. وقد مرّت الإشارة إلى ذلك مع قدر من الاستدلال عليها في جملة من بحوث الكتاب. إلا أن هناك أبعاداً ضرورية أخرى لم يجز البحث فيها وهي ممّا يستحق ذلك. فإضافة إلى أن الدليل العقلي قد دلّ على عدم جواز اسناد الرسالة والإمامة إلى من ارتكب الخطيئة ومارس الإثم وظهر منه الذنب، فزدرته الأعين واستصغرت النفوس، وهبطت مكانته في أعين الناس، وضرورة إسناد هذين



المنصبين الى من تطهر عن ذلك، وانصف بكل كمال انساني رفيع. انسجماً مع قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾<sup>(٢)</sup>.

إضافة الى هذا الدليل العقلي فَإِنَّ الدليل النقلى القرآنى قد دلّ تصریحاً تارة، وتلويحاً تارة أخرى على عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً\* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً\*<sup>(٣)</sup>. فَإِنَّ الظاهر من هذه الآيات أن الوحي مصون من الالتقاءات الشيطانية من نقطة انطلاقه وصدوره الى نقطة وصوله الى الناس، وأن هذه الصيانة تتم برسالة الله سبحانه الملائكة المراقبين المحافظين عليه، وما ذلك إلا تعبير عن عصمة الرسول في مجالات التبليغ وايصال الأحكام الإلهية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup> حيث نصت هذه الآية على وجوب الطاعة المطلقة للرسول في جميع ما من شأنه أن يطاع فيه من الأفعال والأقوال والآداب.

فلو لم يكن الرسول معصوماً لاحتمل بحقه الخطأ والنسيان وارتكاب المخالفة، ولأصبح واجباً على الناس اطاعته حتى في هذه الموارد. وهذا يعني

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) القصص: ٦٨.

(٣) الحج: ٢٦-٢٨.

(٤) النساء: ٦٤.

أن الله قد أمر بالخطأ والعصيان، وهو مستحيل، فمن أجل دفع هذه النتيجة المستحيلة لابد من القول بعصمة الرسول عن كل ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾<sup>(٢)</sup>، فهل يعقل صدور الذنب والخطأ والنسيان ممن كان محروساً بعين الله ومغموراً برعايته الشديدة، ويتوالى إليه التثبيت منه تعالى باستمرار؟ وما معنى ﴿إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ و﴿ثَبَّتْنَاكَ﴾ إذا كان النبي لا يزال يصدر منه الذنب والخطأ والنسيان؟

ومنها قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاكَ لِأَعْيُنِنَا جَمِيعًا مِمَّنْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وهو اعتراف من مبدأ الضلال - إبليس - بالعجز عن اغواء من أخلصهم الله واصطنعهم لنفسه، وقد قال تعالى في وصف يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾<sup>(٤)</sup> مما يدل صراحة على أن الله سبحانه يتعهد أنبياءه بالحراسة والحماية والتسديد وكل ما من شأنه صرف الفحشاء والعمل السيئ عنهم، وأنه تعالى قد استخلصهم وجعلهم من المخلصين، فإذا كان من صرف عنه السوء والفحشاء قد أصبح من المخلصين فلا شك أن من وصف بأنك (بأعيننا) وبالتثبيت الإلهي (ثبتناك) سيكون في رتبة أعلى ومقام أرفع، وهل مؤدى ذلك كله إلا العصمة؟

(١) الطور: ٤٨.

(٢) الاسراء: ٧٤.

(٣) ص: ٨٢-٨٣.

(٤) يوسف: ٢٤.

ولسنا هنا بصدد احصاء الآيات الدالة بنحو من الأنحاء على عصمتهم ﷺ وبيان وجوه هذه الدلالة وتقريباتها، ولكن غرضنا هو التنبيه على أن عصمة الأنبياء والأئمة أمر يقتضيه الوجدان والقطرة السليمة. وأن التشكيك في ذلك لا ينطلق من أساس مقبول. وأساسه الوحيد هو قياس شخصية هؤلاء الصفوة على شخصية سائر الناس، ومعلوم أن صاحب الذوق المرير يجد كل المأكولات في فمه مرة، ومن يرتدي نظارة صفراء يرى كل شيء حوله أصفر، وهو لا يدري أن المرارة والاصفرار لا وجود لهما في الأشياء التي يتذوقها ويراهما، وإنما هما موجودان في فمه ونظارته، فالعيب منحصر فيه وقد عممه إلى غيره.

ومن هنا تصدى الأئمة ﷺ لدفع ما قيل من الشبهات حول عصمتهم وعصمة الأنبياء تنزيهاً لساحتهم من الشين والدرن.

وقد تمسك المنكرون لعصمتهم ﷺ بأمور تصوّروها أنها أدلة كافية للانكار، وهي ليست كذلك، ومن الضروري أن نستعرض بعضها لبيان مدى ضعفها، وكل ما تمسك به هؤلاء آيات قرآنية يفهم من ظاهرها نسبة الذنب والخطأ والنقص للنبي ﷺ.

منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر<sup>(٢)</sup> ولكي نرد عليهم تمسكهم بهذه الآيات لا بد من أن نطعن أولاً على المعنى اللغوي للذنب.

(١) غافر: ٥٥، محمد: ١٩.

(٢) الفتح: ١-٢.

قال الراغب في «المفردات»: «الذنب - في الأصل - الأخذ بذنب شيء. يقال: ذنبت. أصبت ذنبه. ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه. اعتباراً بذنب الشيء. ولهذا يسمى الذنب «تبعه» اعتباراً لما يحصل من عاقبته»<sup>(١)</sup>. ويقرب من ذلك ما قاله اللغويون الآخريون.

فالذنب إذن هو الفعل الذي تخاف عاقبته، وهو على أنحاء:

١ - التمرد على القوانين المشرعة لتنظيم الحياة الاجتماعية، إذ يعد المتمرد عنها مذنباً فينال العقاب المناسب لذنبه. وهذا هو الذنب الوضعي المستتبع لنجزاء والعقوبة الوضعية.

٢ - الخروج عن القوانين الأخلاقية، ذلك أن الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفة والعدالة بكل تفرعاتها وما يبتني عليها وإن كانت جميعاً أوصافاً نفسية لا ضامن لإجرائها وتنفيذها عملياً لأنها بنفسها منكات لا اختيارية، إلا أنها بلحاظ المقدمات والطرق المؤدية إليها تعد أوصافاً اختيارية، ولذا فهناك أوامر عقلية بتحصيل تلك الفضائل، ونواه عقلية عن اجتناب الرذائل من أضدادها، ولذا يعد المتخلف عنها مذنباً، وبإزائه توجد عقوبة اجتماعية أو قانونية مناسبة.

٣ - عدم الإتيان بالعمل على هيئته المثلى وبما يلزمه من الرسوم والآداب والأعراف. فصدور مثل هذه الحالة من الإنسان البسيط العادي لا يعد ذنباً، فلا يلام ولا يعاقب، لكنّها بلحاظ الإنسان الآخر ذي المنزلة والمقام الرفيع بين الناس قد يشار إليها كعيب وتدرج في قائمة النقائص، وهذا هو معنى القول

(١) تراغب الإسمهاني، أحسنين بن محمد، مفردات: ص ١٨١.

المشهور «حسنة الأبرار سيئات المقتربين»، ولذا فلا مانع من تسمية هذه الحالة بالذنب الأدبي، ومن الطبيعي أن تكون بإزائه عقوبة أدبية.

هذا إذا نظرنا إلى هذه الحالة من الزاوية الاجتماعية. وقد ننظر إليها من زاوية أخرى هي زاوية نفس الشخص ومدى ارتباطه بالجهة التي يقدم العمل لها، فإن كانت علاقته بتلك الجهة علاقة ضعيفة فلا يعدّ صدور مثل هذه الحالة منه ذنباً ولا نقصاً، بخلاف ما إذا كانت تربطه بتلك الجهة علاقة حب أكيد وشوق بدرجة عالية. فسنجد حينئذ ينحوب باللائمة على نفسه لصدور مثل هذه الحالة منه إزاء محبوبه، وكلما اشتدت العلاقة وازداد الحب اشتدّ النوم على النفس وازدادت تلك الحالة سواداً في عينيه حتى يعدها ذنباً عظيماً، وإلى هذا يشير القول المعروف: «لا تنظر إلى صغر المعصية، وانظر إلى عظمة الخالق الذي تعصيه»، فمثل هذا الإنسان الذي أخذت محبة الله بمجامع قلبه واتجهت نفسه بشوق ما بعده شوق إلى الكامل المطلق فلم يعد له مطلوب سواه. ولا دين إلا هذا الحب وتحقيق مقتضياته بالقيام بصالح الأعمال والابتعاد عن الموبقات لأن الله يحب ذلك، لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره. وإنما نصرف الحب المتأصل.

مثل هذا الإنسان إذا عرضت له غفلة أو جفوة عن محبوبه عدّ ذلك ذنباً عظيماً، حتى ليكون الانشغال بضروريات الحياة معدوداً عنده من الذنوب التي تلقي بينه وبين محبوبه أسدال الستار.

وعلى هذا المعنى تحمل الآيات الأولى من الآيات الثلاث الماضية، وعليه أيضاً يحمل ما ورد في الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام من

الاعتراف بالذنوب والمعاصي وطلب التوبة والاستغفار منها، وهكذا الآيات التي تنسب المعصية إلى الأنبياء الكرام عليهم السلام.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ...﴾ فَإِنَّ الذَّنْبَ الْمَذْكُورَ فِيهَا ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ...﴾ إِنَّمَا هُوَ بِلِحَازِ نَظَرِ الْآخِرِينَ وَمَا تَصَوَّرَهُ الْأَعْدَاءُ ذَنْبًا أَرْتَكِبُهُ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّ الْآيَةَ تَجْعَلُ الْفَتْحَ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الذَّنْبِ، وَلَا مَعْنَى لِهَذَا الرِّبْطِ بَيْنِ الذَّنْبِ وَالْفَتْحِ إِلَّا إِذَا حَمَلْنَا الذَّنْبَ عَلَى مَا تَصَوَّرَهُ الْأَعْدَاءُ ذَنْبًا.

ذلك أن النبي ﷺ قد واجه حملة عنيفة من المعارضة والتشويش والاتهام قبل الهجرة إلى المدينة وبعدها، إلا أن تلك المعارضة لم تحقق أهدافها، وانتصر الرسول عليها وعلى أصحابها، بعد أن حمل السيف وجاهد المشركين والكفار وقتلهم قتالاً عنيفاً، فاحتسب الأعداء ذلك منه ذنباً، لذا كانوا يترصدون به الدوائر. إلا أن الله تعالى أتى بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم، وأدار عليهم دائرة السوء بالفتح المبين، ففتنت شوكتهم وخمدت نار فتنتهم، وبهذا يكون الله قد غفر لنبية ما ظنوه ذنباً صدر منه.

وليس هذا المعنى غريب على القرآن الكريم، ففي قصة موسى ﷺ نقرأ حكاية القرآن على لسانه ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾<sup>(١)</sup> أي أن الأعداء يحسبوني مذنباً يحقّهم لعمل سابق مني إزاءهم، ولربّما كان وصف جهاد النبي ﷺ الرائع بأنه ذنب كنوع من أنواع المشاكلة البلاغية والمحسنات البديعية.

وما ذكرناه هو تفسير الإمام الرضا عليه السلام للآية حينما سأله المأمون عن الذنب المذكور فيها فقال عليه السلام: «لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله.. فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن»<sup>(١)</sup>.

ومن الآيات التي تمسك بها المنكرون للعصمة قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾<sup>(٢)</sup> وقد نزلت هذه الآية إثر صدور إذن من النبي صلى الله عليه وآله لبعض المنافقين بعدم الخروج الى الجهاد، لأنهم لو خرجوا مازادوا المسلمين إلاً خيالاً ولأوضاعهم خلالهم يبغونهم الفتنة ولقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا للرسول الأمور حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، فإذا نه صلى الله عليه وآله لهم كان إضفاءً للستر على نفاقهم، رحمة بهم.

ولوتأقلمنا الآية قليلاً وجدناها تصب اللطف في قالب تأكيد المدح من العتاب، وكأن الآية تقول للرسول: ما زلت عفواً ستاراً رحيماً حتى دعيتك هذه الملكة المتأصلة فيك الى الستر على المنافقين والمنشقين عليك، وهذا من أطف المدح، وليس فيه ما يدل على المعصية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبغى مرضات أزواجك﴾<sup>(٣)</sup> فقد تمسكوا بهذه الآية رغم سياقها الظاهر في المدح والثناء على النبي صلى الله عليه وآله حيث إن النبي صلى الله عليه وآله حرم على نفسه الخلوة بمارية زوجته، أو حرم تناول العسل تحقيقاً لرغبة زوجاته، فضحى بما يحل له ويهنئ حياته من أجلهن وإيثاراً منه لهن على نفسه، فأشاد الله سبحانه بصفته هذه بأسلوب

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١ / ص ٢٠٢.

(٢) التوبة: ٤٣.

(٣) التحريم: ١.

يبدو منه العتاب ويراد به المدح.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

وَاتَّقِ اللَّهَ وَتَخْفِ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾<sup>(١)</sup>.

وقصة ذلك أن الجاهنية كانت تحرم الزواج على من يدعي الانتساب لأب

معين، وكان زيد بن حارثة قد نسب نفسه للرسول ﷺ فصار دعياً له، كما أنه

كان مولى له، فأراد الإسلام إزالة ذلك التحريم الجاهلي على الأعداء فقام

الرسول ﷺ بتزويج بنت عمته زينب بنت جحش لدعيته زيد، ثم حصلت

مشاكل بينهما وأراد زيد طلاقها، فأوحى الله سبحانه إلى نبيته أن زيدا سيأتيه

طالباً منه الطلاق من زينب، فلما حضر زيد وبين عزمه على الطلاق أمره

الرسول ﷺ بترك ذلك وتقوى الله، وهو يخفي في نفسه الشريف ما أوحى إليه

من أن الأمر سينتهي إلى الطلاق، خشية أن تقع الناس في الفتنة، ولم يكن

يخشى الناس على نفسه لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا

يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وإنما كان يخشاهم لأنفسهم، بمعنى يخشى وقوعهم في

الفتنة.

وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ لا يراد به أنك فضلت خشية

الناس على خشية الله سبحانه، ولو كان كذلك لكانت خشيته منهم حقاً وخشيته

من الله أحق، وهذا منافٍ للقصر المذكور في آية: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ

وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾<sup>(٢)</sup>. فكلمة «أحق» الواردة في الآية ليست

للتفضيل، وإنما هو للتعيين كما في قوله تعالى: ﴿وَبَعُولَتَيْنِ أَحَقَّ بَرْدَهُنَّ﴾.

(١) الأحزاب: ٣٧.

(٢) الأحزاب: ٣٩.



وهكذا نجد الآية كسابقتها في معرض بيان رافة الرسول بالناس وحرصه على صلاح شأنهم، وكأنها جميعاً بمضمونها تشير إلى قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾<sup>(١)</sup>.

ومن الآيات التي تمسكوا بها ما نزل على طريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة» كما في الحديث المروي عن الصادق عليه السلام، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾<sup>(٤)</sup>.

وهذا النوع يشمل آيات كثيرة منصرفة كلها عما قيل من دلالتها على وقوع النبي عليه السلام في الخطأ أو المعصية. لأن المقصود الأساس بهذه الخطابات أفراد كانوا من أصحاب النبي عليه السلام يقعون في ذلك فيتوجه الخطاب للرسول على طريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة» أي أن المقصود بها الأصحاب الذين ارتكبوا تلك الأعمال وليس النبي عليه السلام نفسه.

ومنها بعض الآيات التي فسرتها روايات دخيلة مدسوسة بتفسيرات تتنافى والعصمة، كالأية الكريمة: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) الأحزاب: ١.

(٣) البقرة: ١٤٧.

(٤) الأنعام: ٥٢.



ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴿١﴾ .  
وهذه الآية عبرت عن حقيقة هامة في مسيرة الرسالات وتأريخ النبوات، وهي أن العمر الرسالي والنبوي لا يخوم من العقبات، وكثيراً ما كان الأنبياء يتمنون النجاح في مهماتهم النبوية وإيصال مجتمعاتهم إلى الأهداف السماوية المرسومة والانتصار على الأعداء وسحقهم، وما تكاد هذه الأمانى تستقر في نفوسهم وخواطرم حتى تبدأ الخطوات الشيطانية لتلغيم الطريق وإضعاف العزائم النبوية وسد السبل بوجههم، إلا أن الله غالب على أمره، فينسخ الله لقاءات الشيطان الموهنة لعزائم الأنبياء ووساوسه المؤيسة لهم، ثم يرسخ أمانى الأنبياء وأهدافهم وعزائمهم. هذا ما يفهم من الآية الشريفة، ولكن بعض المفسرين والمؤرخين نقلوا أخباراً واهية مدسوسة في موضوع الآية وتفسيرها، وهي أن النبي ﷺ كان قد تمنى أن ينزل الله آية يرتضيها الأعداء ليجلب بها قلوبهم. فلما شرع في تلاوة سورة النجم وتلا قوله تعالى: ﴿أفرايتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ﴿٢﴾ أجرى الشيطان على لسانه كلاماً في استمرار الآية وهو «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» وإن النبي قد قال ذلك، ولكن هذا الكلام لا يمكن نسبته إلى مؤمن من المؤمنين فضلاً عن أعظم الأنبياء وخاتم الرسل. لما فيه من نسبة الكفر الصريح إلى الساحة المحمدية، وكيف يتمنى الرسول أن ينزل الله كلاماً في مدح الأصنام التي قضى

(١) الحج، ٥٣.

(٢) الحج، ١٦، ٢٠.

حياته وضحى بكل شيء عنده من أجل القضاء عليها، وما سورة «الكافرون» التي جسدت قاطعية النبي ﷺ المطلقة في مواجهته مع المشركين إلا دليل كاف ينسف هذه الدعوى ويبين زيفها وجذورها التحريفية. بل الآية اللاحقة لنفس الآية تنفي ذلك التفسير المختلف. وهي قوله تعالى: ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .

وقد أنكر العديد من أعلام المسلمين من غير المدرسة الإمامية تلك الروايات مثل ابن حزم الأندلسي<sup>(١)</sup> والقاضي عياض<sup>(٢)</sup> والقسطلاني<sup>(٣)</sup> وغيرهم ممن أبطلوها وأثبتوا كونها موضوعة.

والحمد لله رب العالمين

(١) الأندلسي، علي بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل: ج ٤ / ص ٢٣.

(٢) القاضي، عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج ٢ / ص ١١٦ - ١٢٨.

(٣) القسطلاني، أحمد بن محمد، المواهب اللدنية: ج ٢ / ص ٨٥ - ٨٦.



## مصادر التحقيق

(أ)

- القرآن الكريم.
- الاحتجاج، أحمد بن علي الطبرسي، مطبعة النعمان، النجف.
- أحكام القرآن، أحمد بن علي، ط مصر.
- الإسلام وأصول الحكم، علي عبدالرازق.
- الاختصاص، محمد بن محمد المفيد، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي، ط إيران.

(ب)

- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط بيروت.
- البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني، ط قم، دار انكنب العلمية.

(ت)

- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط مصر.
- تذكرة الخواص، يوسف شمس الدين المعروف بسبسط بن الجوزي، ط النجف.

- تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المعروف بأبي الفداء، طبع مصر سنة (١٣٠١ هـ) هامش تفسير فتح البيان لابن حسن القنوجي.
- تفسير الخازن، علي بن محمد المعروف بالخازن.
- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير الصافي، محمد محسن الفيض الكاشاني، طهران، المطبعة الإسلامية.
- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، ط بيروت، مؤسسة الأعلمي، هاشم الرسولي المحلاتي.
- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ط النجف.
- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، بيروت، دار الفكر.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط ٢، مصر، دار المنار.
- تفسير نور الثقلين، عبدعلي بن جمعة الحويزي، ط قم، تصحيح وتعليق: السيد تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي .

## (ج)

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ط ٢، مصر.
- جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ط ١٠، مصر.

## (ذ)

- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آغا بزرك الطهراني.

## (ر)

- روح المعاني، محمود الألوسي، ط ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

## (س)

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ط مصر.  
- السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

## (ش)

- شرح نهج البلاغه، ابن ميثم، ميثم بن علي، ط ايران.  
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مطبعة خليل أفندي، سنة ١٢٩٠ هـ.  
- شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، عبيدالله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، وزارة الإرشاد في الجمهورية الإسلامية.

## (ص)

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، طبعة دهلي.  
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الجيل، بيروت.

## (ع)

- العمدة، يحيى بن الحسن بن الحسين المعروف بآين البطريق.  
- عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن الحسين الصدوق، ط قم.



## ( غ )

- غاية المرام في حجة الخصام، السيد هاشم الحسيني البحراني، ط طهران.

- الغدير، عبد الحسين الأميني، ط طهران.

## ( ف )

- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني.

- فرائد السمطين، إبراهيم بن محمد الحموي، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط بيروت.

- الفصل في السلل والأهواء والنحل، علي بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، بغداد.

- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، علي بن محمد المغربي المالكي المعروف بابن الصباغ، ط ٣، النجف.

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي.

## ( ق )

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة.

- قرب الإسناد، عبد الله بن جعفر الحميري، ط ١، النجف، ١٣٦٩ هـ.

## ( ك )

- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ط بيروت دار الأضواء.

- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري.
- كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، محمد بن يوسف القرشي الكنجي الشافعي، تعليق وتصحيح محمد هادي الأميني.
- كليات أبي البقاء، أبو البقاء الحسيني الكفوي الحنفي، ط سنة ١٢٨٧ هـ.
- كمال الدين، محمد بن علي الصدوق، ط طهران، تصحيح و تعليق علي أكبر الغفاري.

## (م)

- مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسي، ط طهران، تصحيح و تعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي.
- المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية، قم.
- مرآة العقول، محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية، طهران، تصحيح: السيد هاشم الرسولي المحلاتي.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.
- المفردات، الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني، دار المعرفة بيروت.
- مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني، ط بيروت.
- المناقب، علي بن محمد المعروف بابن المغازلي الشافعي، تحقيق محمد باقر البهبودي، ط طهران.

- المناقب ويسمى بـ «فضائل أمير المؤمنين عليه السلام»، موفق بن أحمد الخوارزمي، ط  
النجف.

- المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، ط إيران.

- منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، المكتبة العلمية، بيروت.

- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الشرفية في  
مصر سنة ١٩٠٨م.

- ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي.

- الميزان في تفسير القرآن، العلامة محمد حسين الطباطبائي، ط ٢، بيروت.

### ( ن )

- نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض، شهاب الدين أحمد الخفاجي  
المصري، ط ١، المطبعة الأزهرية بمصر.

- نظم درر السمطين، جمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي، ط النجف.

## الفهرس

٧	كلمة المجمع .....
١١	كتاب الإمامة والولاية في القرآن الكريم .....
١٥	مقدمة المؤلفين .....
١٩	الفصل الأول: الخلافة أساس الكمال الإنساني وغايته .....
٢٤	الخلافة الإلهية، ملاكها ودائرتها .....
٢٩	الفصل الثاني: مقومات الإمامة وخصائصها .....
٣٣	الإمامة الإبراهيمية .....
٤٧	الفصل الثالث: أعلام الولاية وكواكب الإمامة .....
٤٩	ولاية الأمر أو الدولة الإسلامية .....
٥٧	صلاحيات أولي الأمر .....
٥٩	من هم أولو الأمر؟ .....
٦٥	الفصل الرابع: الولاية الزاكية .....
٦٧	الركوع .....
٦٧	الولاية ومفهومها في القرآن الكريم .....
٧٢	دلالات آية الولاية .....
٧٤	الروايات المفسرة .....
٨٠	شبهات وردود .....
٨٧	الفصل الخامس: الإمامة إمتداد للرسالة .....
٩١	روايات مدرسة الخلفاء .....

- روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام ..... ٩٦
- الفصل السادس: الإمامة إكمال الدين وإتمام النعمة ..... ٩٩
- مناقشات في ضوء العقل والواقع التاريخي ..... ١٠٥
- روايات المدرستين ..... ١٠٩
- الفصل السابع: الإمامة لمن عنده علم الكتاب ..... ١١٣
- من هو الذي عنده علم الكتاب؟ ..... ١٢٠
- الفصل الثامن: الإمامة الشاهدة ..... ١٢٣
- الشاهد في روايات المدرستين ..... ١٣١
- الفصل التاسع: الولاية الفاضلة ..... ١٣٧
- قصة المباهلة ..... ١٣٩
- دلالة الآية على فضل أهل البيت عليهم السلام ..... ١٤١
- شبهة ورد ..... ١٤٦
- الفصل العاشر: الإمامة المعصومة ..... ١٥٥
- الفصل الحادي عشر: موادة الولاية ..... ١٦٩
- آراء أخرى في الآية ..... ١٧٦
- الفصل الثاني عشر: من الوسطية الى الشهادة ..... ١٨٣
- الأمة الوسط ..... ١٨٦
- مقتضيات هذا المقام الرفيع ..... ١٩٤
- الفصل الثالث عشر: من الاجتباء الى الشهادة ..... ١٩٧
- الفصل الرابع عشر: رقابة الولاية ..... ٢٠٩
- الفصل الخامس عشر: استخلاصات ونتائج ..... ٢١٧
- نتائج البحث في آية الخلافة ..... ٢١٩

- ٢٢٠ ..... نتائج البحث في آية الإمامة
- ٢٢١ ..... نتائج البحث في آية اولي الأمر
- ٢٢٢ ..... نتائج البحث في آية الولاية
- ٢٢٣ ..... نتائج البحث في آية التليغ
- ٢٢٤ ..... نتائج البحث في آية الإكمال
- ٢٢٥ ..... نتائج البحث في آية علم الكتاب
- ٢٢٥ ..... نتائج البحث في آية البيئنة
- ٢٢٦ ..... نتائج البحث في آية المباهلة
- ٢٢٧ ..... نتائج البحث في آية التطهير
- ٢٢٧ ..... نتائج البحث في آية المودة
- ٢٢٨ ..... نتائج البحث في آية الشهادة
- ٢٢٩ ..... نتائج البحث في آية الاجتباء
- ٢٣٠ ..... نتائج البحث في آية رؤية الأعمال
- ٢٣١ ..... الخلاصة
- ٢٣٣ ..... الخاتمة: بحث موجز في بعض خصوصيات الإمامة (العلم بالغيب و العصمة)
- ٢٣٥ ..... أولاً - العلم بالغيب
- ٢٤٤ ..... ثانياً - العصمة
- ٢٥٧ ..... مصادر التحقيق
- ٢٦٣ ..... الفهرس